

# الباب الرابع

## الترحيل لإهباري إلى "كاراهندا"

كانت محطة البضائع المسورة بسور الخشب فقط ، والمضروب حولها حراسة مشددة ، تشبه في يوم ٢٨ سبتمبر خلية نحل ، اذ كانت تصل كل عشر دقائق ، أو خمس عشرة دقيقة عربة نقل محملة بالألمانيين الذين سيرحلون عن موسكو . في تلك الأيام الحالكة من أيام الحرب ، عندما كانت تتقدم القوات الألمانية نحو موسكو ، ويحتاج الوضع الى كل عربة في قطار ، وكل عربة نقل احتياجا ملحا ، وجه هذا العدد الكبير من عربات السكك الحديدية ، وسيارات اللورى لنقل المرحلين وأمتعتهم . لم ينقطع تردد المرتدين الملابس العسكرية على عربات قطار البضائع صعودا وهبوطا ، وصاح أحدهم :  
« لماذا تقفون هنا ؟ اركبوا القطار ! »

وانطلقنا نحاول الركوب على طول القطار ، كل يبحث عن مكان صغير يقف فيه ، ولكن هؤلاء الناس الذين كانوا جالسين في القطار جنبا الى جنب ، متلاصقين من شدة الزحام ، صاحوا من بعيد :  
« لا يوجد مكان ! » وكان محتما علينا ألا نحاول الركوب ، فالقطار مزدحم ازدحاما شديدا ، لا تجد فيه موقعا لقدم .  
وعاد رجال الشرطة مرة أخرى وقالوا : « لماذا لم تركبوا القطار حتى الآن ؟ »

فقلنا : « لا يمكن هذا أيها الرفيق الضابط ، فليس في العربات موضع لقدم واحد فضلا عن قدمين ! »  
ولم يقتنع الضباط بهذا ، وقالوا : « سوف نستطيع ذلك حالا » .  
وساروا معنا على طول القطار ، لبحث عن مكان ، يمكن أن نحشر فيه ، واكتشفنا شيئا لم نره من قبل ، فالحراسة العسكرية ، لم تقتصر على المحطة فقط ، بل كان في القطار حراسة عسكرية من الجيش الأحمر يصحبها بعض الضباط أيضا .

أصدر العسكريون بعض الأوامر ، ولم يرفع الألمانيون أيديهم لحماية أنفسهم من ضغط الزحام ، بل تَمَرَّوا بصوت منخفض جدا . وفي

أقل من نصف ساعة كنا — وبعض الذين وصلوا بعدنا — قد قذفنا في العربات كما تحمل البضائع • لم نستطع الجلوس اطلاقا ، بل وقفنا ، وانتظرنا ما يمكن أن يحدث بعد ذلك •

\* \* \*

### الرحلة الى عالم غير آه ن

كان يوجد معى فى عربة البضائع الصغيرة حوالى ٥٠ شخصا أعمارهم مختلفة ، ومهتهم متنوعة أيضا ، ويمثلون كل الطبقات الاجتماعية ، من العامل البسيط حتى أستاذ الجامعة الذى اشتهر عن طريق التليفزيون • وكانت أعمارهم من الطفل الذى لم يتجاوز عمره ثلاث سنوات حتى الشيخ ، الذى بلغ الثمانين من عمره • لم يكن أحد منهم يوما ما فى ألمانيا ، باستثناء بعض الطلبة الشبان الذين لجأوا سياسيا الى الاتحاد السوفييتى ، فبعضهم لم يتعلم اللغة الألمانية اطلاقا ، وكانوا روسيين مثل كل سكان موسكو ، كان بيننا فتاتين من القرم ، انحدرتا من جمهورية « فولجا » ورحلتا الى موسكو وهما صغار السن •

أدرت شيئا فشيئا ، لماذا اعتبر هؤلاء الناس فجأة « ألمانيون » ورحلوا الى « كيسيل — أوردا » ، فقد جرى احصاء للسكان فى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٣٩ م ، وكان من المفروض أن يكتب بجانب « الوطن التابع له » الجنس المنحدر منه ، فأملوا آنذاك — دون تفكير فى العواقب — طبقا لتقاليد متبعة لديهم أو اشباعا لرغبة الظهور بالانتماء الى جنس ذى حضارة ، أنهم ينحدرون من الجنس الألمانى ، لم يخطر فى بالهم أن هذه الملاحظة ستجر عليهم المتاعب فى حياتهم ذات يوم • والآن ! يجلس هؤلاء الذين لم يكن بإمكانهم ذات يوم أن يكونوا ألمانيين ، يجلسون هنا بوصفهم « ألمانيون » ، ويرحلون الى عالم غير آه ن ، ويواجهون قضاءهم غير المعلوم •

انضمت فى بادىء الأمر الى أولئك الذين هم فى الحقيقة ألمانيون : أقطاب الحزب الشيوعى الألمانى ، الذين حاربوا فى أسبانيا مع الفرقة العالمية ، ولجأوا سياسيا الى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٣٩ م ، ويجلسون الآن فى هذا المطار بوصفهم « ألمانيون مشكوك فى ولائهم » • وهم زوجة الكاتب الشيوعى « ألبرت هوتوب » وابنتها « كيتسى » و « جيردا » ، و « أرمجارد سيكيرت » بنت الشيوعى الألمانى « ألفريد سيكيرت » الذى حارب مع الفرقة العالمية ، واعتقل أثناء

الحرب في سويسرا ، وقد جاءت ابنته الى الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٣٤ م ، والتحقّت — مثلى — فيما بعد بمعهد المعلمين للغات الأجنبية • استولى اليأس علينا في أول مساء لنا في هذه الرحلة فبدأ الثلاثة الذين حاربوا في أسبانيا يغنون أغاني مرحة ، فقبل لهم :

« يبدو أنكم مبسوطين ، على الرغم مما نحن فيه » فأجاب أحدهم : « لا يعدو هذا سوى رقصة المذبوح » •

كنت أقدر موقفهم ، وأفهم نفسياتهم ، فهم قد حدموا الحزب بأمانة ، عشرات السنين ، ووضعوا حياتهم على أكفهم في أسبانيا ، والآن يرحلون الى منطقة نائية في وسط آسيا •

وفكرت في أحوالي الخاصة ، بالأمس كنت لا زلت عضوا في منظمة الشباب ، وطالبا ، والآن أجلس هنا كـ « أجنبي مشكوك في ولائه » في هذه العربة تحت الحراسة المسلحة • غادرت موسكو ، تركت أصدقاء ، ورحلت الى « كيسيل — أوردا » •

ولكني — وان كان ذلك مستغربا عند القاريء الغربي — لم أشعر بمرارة ، ولم يستول الحقد على مشاعري ، بل كنت على العكس ، أحاول تبرير هذا الترحيل الاجباري • من المؤكد — هكذا قلت لنفسي — أن هذا ليس قدرا دؤلما ، ترحيل عضو متحمس في منظمة الشباب ، في عربة بضاعة كـ « أجنبي مشكوك في ولائه » • الى وسط آسيا •

بل انها مأساة ، وخاصة بالنسبة لأولئك الرفقاء الذين خدموا الحزب طول حياتهم ، ثم يكون الجزء ترحيلهم الى هذه المنطقة النائية ، ولكن هل كان من الممكن حقا ، في تلك الأيام العصيبة ، حيث تتقدم القوات النازية ، أن يكون هناك وقت ، للتمييز بين الألمانين • وفقا لمواقفهم مع الحزب الشيوعي ؟

سار القطار عبر السهول الروسية . واضطر الى لوقوف مرارا على طول الخط في أماكن خالية ( أي غير معدة لأن تكون محطة ) ، فليس هناك ما يدعو الى العجلة •

كانت حالة لمدن التي مررنا عليها وهي « رياثسك » و « مورشانسك » ، جنوب شرق موسكو ، يوحي بجوسلمى •

ولكن سرعان ما تغير هذا ، فبعد ستة أيام من السفر ، وصلنا الى « بينز » وهي على بعد ٥٥٠ كيلو متر من موسكو ، فوجدنا آلافا من البشر — بين جالس ، ومستلق — في محطة السكك الحديدية ، وعلى

السلام ، وفي الشوارع ، والبيادين ، لاجئين ، ومرحلين من المناطق الغربية في روسيا . وعلى الرغم من القواعد الصارمة لتنظيم عملية نقل هؤلاء الناس ، فقد وقف الموظفون المحليون عاجزين عن مواجهة السيل ، الذي لا ينقطع من المهاجرين والمرحلين . وهكذا حط الناس رحالهم ببساطة في الشوارع ، والبيادين آملين أن يتمكنوا مرة أخرى من اللحاق بقطار ينقلهم الى مسافة أبعد تجاه الشرق .

ولكن كان هذا أملا غير منظور تحقيقه ، فالقطارات تصل الى « بينزا » وليس فيها موضع لقدم ، ولهذا اضطر الناس الى البقاء هناك أسابيع الى أن يوزعوا أخيرا على مناطق المزارع الجماعية الموجودة حول المدينة .

واصل القطار سيره في المساء متجها الى « سيزران » و « كوبيشيف » فوصلنا اليها في ساعة متأخرة من الليل . وأردت النزول مرة أخرى ، ولكن القطار كان محاصرا في هذه المرة بالجنود ، الذين كانوا يراقبون ركاب القطار مراقبة صارمة ، فصاحوا : « لا يجوز لأحد مغادرة القطار » وتساءل أحد المسافرين : « حتى ولو كان للحصول على شربة ماء » ؟ فرد الجندي : « لا ! لا تغادر القطار اطلاقا ! وسوف يتعرض من يغادر القطار لأشد العقوبات ، فلا يجوز لكم النزول ، ما دام القطار واقفا في هذه المحطة » .

علمنا بعد بضعة أسابيع - بعد أن أقمنا في وسط آسيا همدة طويلة - أسباب منع النزول في هذه المحطة ، ففي ذلك الوقت ، كان العمل قائما على قدم وساق للاستعداد لترحيل الحكومة والوزارات ، والهيئات الدبلوماسية الأجنبية من موسكو الى « كوبيشيف » ، ولم يسمح آنذاك بالسفر الى هذه المدينة الا لكبار الموظفين ، ولشخصيات البارزة .

وعندما غادرنا « كوبيشيف » بدا لنا أن رحلتنا تمر سريعا ، فأصبحنا متفائلين جدا ، وبدأ كثير منا يلعبون « الكوتشينة » ، والآن يبدو كل شيء على ما يرام ، فما يبقى بعد « كوبيشيف » في الطريق الى « كيسيل - أوردا » في الاتجاه نحو الشرق سوى المرور على « تشاكالوف » وعلى « أكتيوبنسك » وعلى « أراسك » . كان حديثنا عن حياتنا المقبلة في « كيسيل - أوردا » لا ينتهي .

وفجأة وقفنا في منتصف الطريق شرقي « كوبيشيف » عدة ساعات ،

وسمح لنا بمغادرة القطار ، فتمشيت في محاذة القطار ، وفجأة رأيت لافتة مكتوب عليها « تشيليا بينسك » •

« تشيليا بينسك. » ! هذه المدينة لا تقع على الطريق الى « كيسيل — أوردا » وعدت بسرعة الى مكانى في القطار ، وأخبرت زملائى بهذا الخبر ، فارتفعت رؤوس اللاعبين صائحين : اذا كنا مسافرين الى « كيسيل — أوردا » فيكون اتجاهنا الجنوب الشرقى ، أما « تشيليا بينسك » فتقع في الشمال الشرقى •

سألنا الموظف المرافق لنا :

« هل نتجه الى « كيسيل — أوردا » ؟ فأوما برأسه ، ولكن هذا غير صحيح ، فقلت له : « وما دلالة هذه اللافتة اذن « تشيليا بينسك » ؟ » « لا أدرى ! لا أستطيع أن أقول شيئاً » • كانت اجابته بتلك اللهجة الخاصة التى عرفتها أثناء اقامتى — بيت سنوات — فى الاتحاد السوفييتى •

لقد اتجه القطار أثناء الليل الى الشمال الغربى ، ونحن الآن عند « بوجوروسلان » فى « بشكيريا » اذن ، لسنا فى اتجاه « كيسيل — أوردا » •

لم يكن لدينا أى فكرة عن الوضع فى « كيسيل — أوردا » ولكن كنا نعلم على أقل تقدير ، الى أين نحن ذاهبون ! أما الآن ، فلا نعلم شيئاً ، حتى اسم المدينة التى سنتجه اليها ، وتحول كل شىء فى الرحلة الى اللامؤكد !

وفى اليوم السابع عشر فى رحلتنا ، تحرك قطار البضائع الذى يحملنا فجأة مرة أخرى وسمعنا صوتاً يصيح : « نحن فى « كازاخستان » • وسرعان ما تعالت الأصوات بهذه الجملة ، على طول القطار ، بعرباته الثمانية • وعلى محطة صغيرة رأينا على اللافتة كتابة بالحروف « الكازاخستانية » تحت الكتابة الروسية • وابتدأ اللعب « بالكوتسينة » مرة أخرى • صحيح ! نحن الآن بين « كورجان » المدينة الواقعة غرب « سيبيريا » ، وبين المدينة « الكازاخستانية » « بيتروبافلوفسك » • وصلنا فى المساء الى أول مدينة كبيرة فى جمهورية « كازاخستان » تلك المدينة التى تحمل الاسم الروسى « بيتروبافلوفسك » فذكرنا أحد المسافرين بأن هذه المدينة كانت فى قديم الزمن ، ملتقى القوافل القادمة من بخارى وطشقند ، إذ كانت محط رحال البضائع القادمة من هناك ،

ثم ترحل الى داخل روسيا • ولكن اهتمامنا في هذا اليوم كان محصوراً في الحاضر فقط •

رأينا لأول مرة الجنس « الكازاخستاني » ، ويتميزون كلهم تقريبا بالشعر الأسود الفاحم ، والعيون السوداء المسحوبة ، ولون البشرة الخمرى الضارب الى الصفرة ، كما كنا نتخيل دائما صورة « المنغوليين » • وكانت طريقة مشيهم ونسبة أرجلهم الى أجسامهم — السيقان أقصر نسبيا من الجسم — من الأمور التي لفتت أنظارنا •

واصلنا السفر من « بيتروبافلوفسك » متجهين صوب الشرق • ولما كانت قضبان السكك الحديدية لا تتجاوز « بالخاش » ، فيجب أن تنتهي رحلتنا في أى مكان بين « بيتروبافلوفسك » ، وبين بحيرة « بالخاش » •

كان الجو دافئا ، وأضيف في محطة « بيتروبافلوفسك » بعض عربات البضائع القديمة التي يغطيها الصدا ، وكانت مكشوفة ، فجلسنا في هذه العربات المكشوفة في آخر القطار ، نتشمس بشمس « كازاخستان » في أكتوبر ، ونشاهد المنطقة التي نمر بها ، ولكن لم يكن هناك شيء يستحق المشاهدة ، فنحن نسير عبر سهول فقط ، تلمع مثل ألواح المرمر ، لا هضبة ، ولا واد فيها • واستمرت هذه المناظر ساعات وأياما • وأثناء عبورنا المنطقة الشمالية في « كازاخستان » شاهدت بعض المناظر ، التي تثير الاهتمام ، فعلى طول عشرات الكيلومترات ، رأينا على جانبي القضبان « سقالات » خشبية كبيرة ، ملقاة على شكل حواجز عالية •

— « لأى شيء تكون هذه السقالات الخشبية الضخمة » ؟

— « هى للحماية ضد الثلوج ، وتستعمل خاصة ضد العواصف الثلجية » •

— « هل تسقط ثلوج كثيرة هنا » ؟

— « فى الشتاء تنزل الثلوج بكميات ضخمة ، يبلغ ارتفاعها ٨ أو ١٠ وأحيانا ١٥ مترا ولا تستطيع القطارات المرور هنا أياما عديدة رغم كل هذه الاحتياطات » •

— « منظر جميل » علق بذلك أحد الطلبة ، وصفر بأسنانه • ولكننا لم نتأثر كثيرا ، فقد بدأ لنا ، أننا مازلنا على بعد كبير من

وقت حلول البرد ، ونزول الثلوج ، وعلاوة على ذلك فنحن الآن نعبّر سهولا  
والشمس طالعة ، ولدينا — لأول مرة — ما يكفينا من الطعام •  
وفي اليوم الثانى والعشرين فى رحلتنا ، وقف القطار فى الساعة  
الخامسة صباحا ، وبدأ الحرس يجيئون ويروحون ، وهم مشدودو  
الأعصاب ، ثم فتحت كل الأبواب وصاح صوت :  
« وصلنا •• انزلوا كلكم ! » فتدققنا على النزول ، لم نر منزلا ،  
ولا طريقا ولا شجرة أو تجيرة ، بل حولنا أشواك وأعشاب •  
سألنا الحراس ، ولم نسمع جوابا • وبعد ساعة علمنا أننا فى مكان  
قريب من منطقة « أوسكوروفكا » وهى تبعد عن « كاراجندا »  
بـ « ١٢٠ كيلو متر تقريبا » • اذن هنا نهاية الرحلة •

\*\*\*

### قرى بدون أسماء

وقفنا حائرين أمام قطار البضائع الذى حملنا الى هذا المكان ، وفى  
أثناء ذلك كانت المهمات قد أنزلت من القطار ، وضوء النهار يزداد شيئا  
فشيئا ، والآن نستطيع أن نتعرف على المعالم المحيطة بـ « أسكوروفكا » •  
وبعد لحظات اقتربت منا عربات الفلاحين ، تجر الخيول بعضها  
ومعظمها تجره الثيران والجمال ، ونم أصدق عيني ، عندما رأيت جمالا  
تجر العربات •

كان ضباط قوات الحراسة يزرعون المكان جيئة وذهاب ، وهم  
متوترو الأعصاب ، وبعد بضع دقائق جاء حارسنا ومعه قائمة ، فأشار  
الينا قائلا : « اقتربوا منى كلكم ! سأقرأ عليكم الآن قائمة التوزيع ،  
سوف توزعون كلكم على القرى المحيطة بنا ، بدأ فى قراءة القائمة :

ما هذا ؟ لم أسمع اسم قرية من القرى ، بل سمعت فقط (Possjolok)  
رقم ٥ ، ٠٠٠٠ رقم ١٢ : ٠٠٠٠ رقم ٨ ، ٠٠٠٠ رقم ٢٤ ، ٠٠ الخ •  
فكلمة (Possjolok) تعنى مستعمرة ، ووضح أنه لم يكن هنا  
قرى ، بل مستعمرات بدون أسماء • فهى تحمل أرقاما فقط •

ثم سمعت اسمى : « ليونهارد » مستعمرة رقم ٥ وانتهت عملية  
التوزيع •

عاودنى الشعور بالانقباض ، مثل ما اعترانى فى بدء الرحلة ، ولكن  
قلت لنفسى :

ما يجرى على أصدقائى فى الرحلة ، يجرى على ، وبصرف النظر،

عن مساواتي معهم في هذا القضاء ، فلا زالت معي بطاقة شخصية لا تحمل .  
خاتم الترحيل .

أخرجت بطاقتي من جيبي بحرص شديد ، فهي الشيء الوحيد الآن ، الذي لا يزال يربطني بالحرية . لقد تحدثت في بداية الرحلة مع الضابط المسئول عن عملية ترحيل هذه المجموعة ، فأكد لي أن كل شيء سوف يسير على ما يرام ، والآن أريد أن أذكره بذلك .

— « أيها الرفيق ضابط الترحيل : أنت تعلم أن بطاقتي ، ليس عليها خاتم الترحيل ، وقد جئت الى هنا ، بناء على اقتراح رئيس شرطة الحى ، الذى كنت أسكن فيه فى موسكو . لقد بين لي حرفيا ، أن لى الحق فى أن أكون حرا ، فى مواصلة سفرى من هنا ، ان أردت . وبناء عليه ، فأنا أريد الحصول على أمتعتي ، حتى أستطيع مواصلة السفر الى ألمانيا — أتا » .

لم يكن مستقبلى معلقا فى يوم ما على جواب من انسان مثلما كان فى هذه اللحظة ، ولكنى كنت مطمئنا من هذه الناحية ، الا أننى سمعت ما لم يكن فى الحسبان :

— « هذا ليس من اختصاصي ، وليس لى الحق فى فعل شيء مثل هذا ، فان كان كلامك صحيحا ، فتستطيع أن تشرح موضوعك لمن يختص بذلك ، وعلى كل حال ، فيجب عليك أن تذهب الآن الى المستعمرة ، التى وجهت اليها » .

— أيها الرفيق ! انظر الى بطاقتي ، فقد استخرجت حديثا ، ٣١ سبتمبر سنة ١٩٤١ فى موسكو ، وليس عليها أى تحديد لمكان الإقامة الجبرية .

فضحك ساخرا وقال : « المسألة ببساطة ! أنهم نسوا فى موسكو أن يخطموا بطاقتك ، ولكن يمكن استدراك هذا الخطأ بسرعة ، فواضح وضوحا لا لبس فيه فى مستنداتك ، أنك ألمانى » .

لم يعد هناك فائدة من المحاولة معه . اندمجت مبدئيا مع المجموعة ، وقررت أن أجرب حظى مرة أخرى بعد وصولي الى المستعمرة رقم ٥ ، ولم يعد عندي أمل كبير فى النجاح .

وفى غضون ذلك ، وضعنا أمتعتنا على عربات الكارو ، التى تجرها الثيران والجمال . وجلس فوقها النساء والمرضى ، أما الآخرون فساروا بجانب العربات صامتين . كان منظرا رهيبا ، طابور طويل من الناس ،

أعيانهم التعب ، ونهكتهم الرحلة ، يجرون سيقانهم على الطريق الى المقر الذى هبىء لهم ، ذلك المقر الذى كان قبل عشر سنوات منفى للاقطاعيين ... حتى سائقو العربات « العرجية » كانوا صامتين .  
— « ما طول الطريق حتى المستعمرة رقم ٥ » ؟

— « ليس بعيدا من هنا ! ربما ٢٥ كيلو متر فقط ، سنصل الى هناك فى المساء ، وربما قب ذلك » .

وواصلنا أسئلتنا ، فتحدث سائق عربتنا عن الحياة فى المزارع الجماعية :

— « مزارع جماعية ؟ أنا أظن أن الاقطاعيين نفوا الى هنا » ؟

ثم أجاب وهو ييمط بالكلمات كعادة الفلاحين الروس :

— « نعم ! لقد كنا اقطاعيين ، ونعيش اليوم هذا النوع من الحياة

« الجماعية » !

— « ولم تقول : هذا النوع » ؟

بدأ سائق العربة — الذى كان اقطاعيا سابقا — يحكى ، كيف نفوا

الى هنا فى عامى ٣٠ — ١٩٣١ م ، وكيف صودرت أملاك هؤلاء الناس ، الذين كانوا يعيشون فى « أوكرانيا » ووسط آسيا ، ثم نفوا الى هذه المنطقة .

كان يتحدث بدون اكرات ، وكأنه ليس طرفا فى هذه الأحداث ،

كان يتحدث كما لو كان يحكى عن أحداث وقعت فى الماضى البعيد جدا ،

فى منطقة نائية من الكرة الأرضية .

— « لم يكن شيئا هنا آنذاك ، غرست أوتاد فى الأرض ، وعليها

لموحة ، مكتوب فيها : المستعمرة رقم ٥ ، رقم ٦ ... الخ . وسيق

الفلاحون الى هنا ، ثم قيل لهم : أنهم يجب عليهم أن يساعدوا أنفسهم

... بأنفسهم ، ثم حفر الفلاحون حفر فى الأرض ، للوقاية من تقلبات

الجو ، ففى الأعوام الأولى مات عدد كبير من الجوع والبرد ، ثم بنوا

بمرور الوقت أكواخا من انطين ، فأصبح الوضع أحسن » .

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

— « آه ! لم يحدث شيئا جديدا ، غير أننا تلقينا الأوامر بأن

تكون مزارع جماعية » .

— « وممن تلقيتهم هذه الأوامر ؟ من السوفييت المحليين ؟ »

هز السائق رأسه وقال :

— « لا يوجد هنا سوفييت محليين على الاطلاق » •

فتبسمت دون ارادة لهذا التبسم ، فيبدو أن رؤوس الفلاحين عاجزة عن التفكير ، فهو لا يعلم ما يقول ، اذ يوجد سوفييت محليين في كل منطقة في الاتحاد السوفييتي ، ولكن تبين لى في المساء أنه كان على حق •

مشينا نخب بجانب العربة التي يجرها ثور ، فقد كان السير على الأقدام يوما كاملا ، بعد أن سافرنا بقطار البضائع ٢٢ يوما ، عملا شاقا وعنيفا • ولكن كان التلهف على ما سنراه في تلك المنطقة أقوى من التعب •

وقبل أن تغيب الشمس ، رأينا شيئا على مسافة بعيدة ، يشبه ما يأوى اليه البشر ، وسرعان ما تبين لنا أنها أكواخ صغيرة ، لم تبين من الحجارة ولا من الخشب ، بل من الطين الأحمر • لم نر شبابيك ، بل فتحات صغيرة تسد في فصل الشتاء كما علمنا بعد ذلك •

قيل لنا عندما وصلنا ، أننا يجب علينا تسجيل أسمائنا عند « القومندان » ولما كنا مضطرين الى الانتظار طويلا ، تجولنا هنا وهناك ، وتحدثنا مع « سكان » هذه المنطقة • كان معظمهم روسيين ، والبعض « أوكراني » أو « تاتاري » ، وليس فيهم واحد « كازاخستاني » اقترب منا بعض الفلاحين قائلين :

— آه ! وصلتكم ! نحن ننتظركم منذ مدة طويلة ، لقد توقعنا أنكم سترسلون الى هنا أيها الألمانيون •

وحاول بعضنا — وأنا منهم — عبثا أن يشرح لهم أننا ضد الفاشية ، وأعداء لهتلر ، فضحكوا وقالوا :

— « الألمانيون هم الألمانيون » •

هل فهموا حقيقة حالتنا أحسن مما نفهمها نحن ؟

يسود هذه المنطقة صراحة عجيبة ، فلم أر حتى اليوم في الاتحاد السوفييتي أناسا يعبرون عن أفكارهم دون تورية ، ولا تحلية ، مثل هؤلاء الناس • وسرعان ما تأكدنا أن كثيرا من الاقطاعيين المنفيين هنا ، لا زالوا الى الآن ضد نظام الحكم الشيوعي في الاتحاد السوفييتي •

لم يصدقوا دعوانا أننا ضد « هتلر » ، وظلوا معتقدين أننا من أتباعه !

( م ١٢ - نظام الحكم الشيوعي )

— « الى أين وصل « هتلر » في زحفه ؟ وما رأيكم ، هل سيأني ، الى هنا ليحرقنا ؟ »

اعترتني قشعريرة ، وتجمد الدم في أطرافي ، فلم أسمع مثل هذا في الاتحاد السوفييتي اطلاقا ، وحاولنا مرة أخرى أن نتسرح للفلاحين . حقيقة موقفنا ، ولكنهم ضحكوا ضحكة دمثة ، ولوحوا لنا بأيديهم ، وقالوا :

— « اذن .. أقيموا هنا بضع سنوات ، فسوف ترون » •

ذهبنا الى « القومندان » ، وهو يسكن في أكبر مبنى في المستعمرة ، جلسنا على الأرض ، وانتظرنا صابرين الى أن يحين دورنا . كانت أمزجتنا مختلفة ، فالألمانيون القادمون من « فولجا » ، والذين نشأوا في قرى ، لم يعتبروا هذا الوضع مأساة ، فهناك — حيث أنشأوا « كلوخوز » (Kolchos) — مستعمرة زراعية ، يعيش فيها الفلاحون . حياة جماعية ، يعملون ولا يملكون ) ، وهنا « كلوخوز » وماذا في هذا ؟ كان الوضع أشد قسوة على أولئك الألمانيين ، الذين كانوا يعيشون في الاتحاد السوفييتي ، كلاجئين سياسيين ، وعلى المقاتلين في أسبانيا ، كما هو مأساة أيضا بالنسبة للمتخصصين تخصصات فنية عالية ، مثل مهندس التليفزيون ، وأستاذ الجامعة . كان بعضهم يتلفت يمينا وشمالا متحسرا . نودى علينا — واحد بعد الآخر — لدخول على « اقومندان » ثم يخرج ويديه ورقة عليها اسم الأسرة انسى ينزل عندها . وكان محتما على الفلاحين أن يأووا القادمين الجدد ، ويجب أن يبلغوا « القومندان » بأقل عقبة تعترض سير الأمور كما هو مرسوم لها . ولكن لم توجد عقبات . واستقبل الفلاحون القادمين ايهم دون اعتراض . فقد كان واضحا لهم : من هي الجهة التي أرسلت هؤلاء ! ، ومن هو الذي وزعهم على الأسر ! •

أمسكت بطاقتي الشخصية غير المختومة بخاتم الترحيل الاجباري ، مقبضا عليها بيدي ، فأنا أعلم أن آخر فرصة لي ، تكمن في هذه الحجرة ، عند هذا « القومندان » •

فاذا تصرف هذا « القومندان » مثل تصرف الضابط ، قائد الرحلة ، فسيكون ذلك قدرى المحتوم ، ولكن لم يزل عندي أمل ، فقد كان قائد الرحلة حريصا على تسليم كل أفراد المجموعة الى الجهة المحددة له ، ولكن يمكن لـ « قومندان » المستعمرة أن يكون لطيفا ، وسوف يسر بنقصان

عدد المجموعة واحدا • وعندما دارت بى هذه الأفكار لاح لى الأمل  
أقرب الى التحقيق ، وأخيرا نودى اسمى •

أيها الرفيق « القومندان » أحب أن ألفت نظر سيادتكم من أول  
الأمر الى أنى لا أتبع هذه المجموعة ، المرحلة الى هنا اطلاقا ، بل جئت  
معها بناء على اقتراح رئيس قسم الشرطة فى موسكو ، وهامى ذى  
بطاقتى استخرجت فى موسكو ، ويمكن أن تتأكد بنفسك أن ليس عليها  
خاتم الترحيل الاجبارى • وأريد أن أوصل سفرى غدا ، أو على أبعد  
تقدير بعد غد الى « ألما - أتا » ، حيث يوجد معهدى ، ولهذا أرجوك ،  
ألا توجهنى الى أى أسرة فى هذا التوزيع •

نظر الى البطاقة بدقة ، ثم قال :

« حسنا ! نستطيع أن نشطب على اسمك من القائمة ، وعلى كل ،  
قالعدد هنا كثير جدا » •

لم أنتظر هذا الحل بمثل هذه السهولة فى تخيالاتى التى تخيلتها  
قبل أن أدخل عليه ، ثم غادرت الحجرة ، وأنا أطيير فرحا •

كانت أفكارى مشدودة حتى الآن الى هذا الاتجاه : البعد عن  
هذه المستعمرة بأى وسيلة ، فأنا أريد الاسراع فى مغادرة هذا المكان  
فقط ، ولكن عندما حصلت على التصريح بمغادرته ، ظهرت مشكلة أخرى :  
يجب أن أغادر هذا المكان •• ثم أقطع آلاف الكيلومترات حتى  
« ألما - أتا » ، وسوف يطلب منى مرارا اظهار بطاقتى وأوراقى  
الرسمية • ومما لا شك فيه أنى أحمل بطاقة غير مختومة بخاتم الترحيل  
الاجبارى ، ولكن كلمة « الألمانى » مكتوبة فيها بوضوح ، ثم شئ  
آخر : ليس معنى نقود كافية ، فعندما غادرت موسكو ، كان معى بضعة  
من « الروبلات » وكان هذا المبلغ ، بالنسبة لى كطالب ، كبيرا ولكنى  
لا أملك الآن سوى مبلغ ضئيل •

لم أضعف أمام كل هذه المصاعب التى اعترضتنى ، وصممت على  
القيام بهذه الرحلة • كان عمرى آنذاك تسع عشرة سنة ونصف ، وكنت  
سليم البنية ، أنكلم الروسية بطلاقة ، وكنت ممثلا بالآمال الطائشة •  
مكث بضعة أيام فى المستعمرة رقم ٥ ، وقضيت الليالى فى أماكن  
متفرقة ، ليلة عند هذا ، وأخرى عند ذلك ، كنت أنام على الأرض ملفوفا  
فى معطفى فقد تعودت على هذا أثناء الرحلة الطويلة •

ثم بحثت عن يستطيع شراء بعض ملابسي ، وكان الشيء الذى عرضته للبيع معظفا خفيفا ، وبنظولنا .  
وافقت على بيعهما — بعد مساومة طويلة — لفلاحة « تاتارية » .  
ولم أحصل منها على مبلغ كبير . ثم أعطيت ربع هذا المبلغ لفلاح مقابل توصيلى الى محطة « أوسكوروفكا » .  
اتجهت الى شبك المتذاكر — وكان قلبى يدق دقا سريعا — لشراء تذكرة الى « كاراجندا » ، نظر موظف السكك الحديدية نظرة قصيرة الى بطاقتى ، ثم أعطانى التذكرة دون أن ينبس بكلمة واحدة ، وبعد أربع ساعات كنت فى « كاراجندا » .



### الوصول الى « كاراجندا »

هذه « كاراجندا » ، مدينة يسكنها ربع مليون نسمة . مركز الصناعة الذى أقيم فى الخطة لخمسية الأولى ؟ محطة السكك الحديدية صغيرة ، مبنية بالخشب ، وقذرة ، وليست أكبر بكثير من المحطة فى « أوسكوروفكا » .

وعندما خرجت من المحطة ، رأيت شارعا ملتويا . قذرا . غير مرصوف ، ومنازل صغيرة آيلة للسقوط ، والجو رمادى قاتم . مملوء بغبار الفحم ، ولا يستطيع المرء أن يتنفس تنفسا عاديا فى هذا الجو . سرت فى الشارع كالمضروب من هول المفاجأة ، فمما لا شك فيه أنى رأيت فى موسكو فقرا . كذلك رأيت عددا من المدن الصناعية المتوسطة . أثناء اقامتى فى الاتحاد السوفييتى ، ولكنى لم أشاهد حتى اليوم مناظر مؤلمة مثل ما رأيت فى هذه المدينة . وتذكرت — دون قصد — وصف الكاتب « جاك لندن » للمستعمرات الاحتياطية ، التى أقامها الباحثون عن الذهب ، فى ذلك العصر الذى انتشرت فيه حمى البحث عن الذهب بين سكان أوروبا ، ولكن لا وجه للمقارنة اطلاقا .

وبعد بضعة دقائق من مغادرتى المحطة اكتشف كهبوا تحت الأرض ( تستخدم للوقاية من البرد ) مغطاة بورق الكرتون ، أو الخشب ، وبعضها كان سقفها قشرة أرضية لا يتجاوز سمكها نصف متر تقريبا ، وأقيمت هذه السقوف على أعمدة .

كان منظرا مرعبا ، حاولت تخفيف وقعته فى نفسى بأنه وضع صارىء ،

يحدث في كل مدينة تتطور صناعيا بسرعة ، ولا يمكن تجنب مثل هذه المظاهر ، وخصوصا أنه لا يمكن ازالتها في هذا الوقت ، حيث الحرب دائرة .

ولم ألبث أن رأيت منظرا آخر : جمع كبير من الناس ، يبدو أنهم « منغوليون » ، وواضح تماما أنهم ليسوا « كازاخستانيين » . بدأت في عدهم ، فتبين لى أن خمس سكان هذه المدينة من هذا الجنس ، وعلمت فيما بعد أن عددا كبيرا من الصينيين ، والكوريين يسكنون في « كارجندا » مع الروسيين والـ« كازاخستانيين » فقد رحلوا في بداية اثلاثينات من هذا القرن من مناطق الحدود في اشرق الأقصى الى « كاراجندا » .

وكلما رأيت مناطق أكثر في هذه المدينة ، كلما ظهر لى عدم استطاعتي المقام بها ، فلا يوجد بها معاهد عليا ، ولا معاهد صناعية ، وليس بها سوى كهوف تحت الأرض ، ومنازل من الخشب آيلة للسقوط ، وبعض المنازل المقبولة نسبيا ، انتشرت هنا وهناك ، وتتخذها الادارات مقرا لها ، ولم يبد لى واضحا — في يوم من الأيام اطلاقا — الفرق الشاسع بين أكواخ المواطنين ، التي يخيم عليها البؤس والحرمان ، وبين هذه المباني الحكومية الجميلة ، المبنية من الحجارة ، والتي تتكون من عدة طوابق ، وضوحه في هذا اليوم . ثم اكتشفت « أتوبيسا » جديدا ، سار بى عبر أحياء ، هى تجسيم للفقر والتعاسة . ذهبت الى السائق مسرعا وسألته : « الى أين نحن ذاهبون » ؟

فأجاب : « الى المدينة الجديدة » .

تركنا وراءنا آخر الكهوف ، وآخر المنازل الآيلة للسقوط بمسافة بعيدة ، ولم تظهر بعد « المدينة الجديدة » . وبعد نصف ساعة سفر تقريبا ، رأيت أنوارا كثيفة على مسافة بعيدة ، وعندما اقتربنا استمرت دهشتى في الازدياد دون توقف ، فقد سرنا في شوارع مرصوفة رصفا جيدا ، ومررنا على منتره جميل ، ورأيت منازل جميلة ، يصل عدد طوابقها الى أربع أو خمسة طوابق . . . وسألته السائق بحذر : « هل تستطيع أن تتصحنى ، كيف وأين يمكن أن أبيت هذه الليلة » ؟ ضحك وقال : « في الفندق » .

نظرت اليه مندهشا ، اذ بعد كل ما قاسيته في الأسابيع الأخيرة ، بدت لى « فندق » كلمة سحرية ، ثم أضاف قائلا :

« طبعا ! يوجد هنا فندق واحد ، فاذا كان معك تصريح ادارى ، سيقبلونك فوراً » .

عندما دخلت الفندق ، اندهشت أكثر ، سجاجيد ، زهور ، أناس يرتدون ملابس نظيفة ذات قيمة ، حرية الناس فى الحركة هنا وهناك . تقدمت الى موظف الاستعلامات بخطوات مترددة ، فسألنى :  
— « هل معك تصريح ادارى ؟ »  
« نعم ! تفضل ! هاهو ذا » .

كنت مستعدا من قبل لسماع هذا السؤال . أطلعته على أوراق اللجنة المركزية لـ « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة (M.O.P.R.) فى موسكو ، ومكتوب فيها : « ترجو اللجنة المركزية لـ (M.O.P.R.) رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة « مساعدة الرفيق « ليونهارد » ، وتذليل الصعوبات أمامه للوصول الى « ألما - أتا » مقر اقامته الجديد . ولم تكن أوراقا ادارية ذات أهمية ، فالـ (M.O.P.R.) رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة « ليست من الأنظمة « القوية » ، وبالإضافة الى هذا ، « فكاراجندا » لا تقع على الطريق من موسكو الى « ألما - أتا » ، وعلى كل كانت أوراق رسمية . قال الموظف : « حسنا ! سندبر لك سريرا » .

لم أصدق أذنى : بعد أربعة أسابيع من الضياع والمآسى ، أستطيع أن أنام على سرير حقيقى ، فى فندق غخم !!! ولكن ينبغى أن يأتى المستقبل بأشياء أحسن مما مضى ، ثم خُبرت بعد دقائق ، أن أذهب الى صالة الطعام لتناول لعشاء ، فشاهدت فى هذه الليلة مطعما أنيقا ، فيه فرقة موسيقية تعزف أنغاما جميلة للزوار ، وقائمة الطعام فيه مليئة بالأصناف المختلفة . وبدا وكأنهم يعيشون فى سلام تام ، وبدا التباين شاسعا بين الجو فى هذا الفندق ، وبين الأحياء القديمة فى « كاراجندا » والأكواخ المبنية من الطين ، للاقطاعيين المنفيين ، ولا يمكن لعقل تصور امكان وقوعه ، لو لم يره فى الاتحاد السوفييتى .

جلس عدد من الناس بملابسهم الأنيقة فى المطعم ، ربما من الشخصيات البارزة فى الحزب ، أو من كبار الموظفين فى الدولة ، الذين يقومون هنا بمهام رسمية . كانوا كلهم تقريبا رسميين . جلس اثنان فقط من « الكازاخستانيين » على احدى الموائد . كان الفندق وكذلك

المطعم مؤسسا ، كما لو كان في مدينة روسية مفضلة بالخدمات من الجهات الرسمية .

لاحظت أول عادة من عادات « كازاخستان » ، اذ لا يشرب الشاي في الفنجان ، بل في كأس ( يشبه السلطانية الصغيرة ) بدون مقبض . ويسمونه (Pjala) ويمسك من تحت عند الشرب بأربعة أصابع . تعلمت هذه الطريقة بسرعة ، وسرعان ما تمكنت من استعمالها ، كما لو كنت « كازاخستانيا » يشرب الشاي .

قمت في الصباح التالي بجولتي الأولى عبر « المدينة الجديدة » ، ولم تكن انطباعاتي مخيبة للأمل ، اذ تتكون كل المدينة من منازل جميلة حديثة من أربعة طوابق ، وفيها النور الكهربائي والمياه ، ولكن اطلاق اسم « المدينة الجديدة » عليها مبالغ فيه ، اذ لم تكن مدينة ، بل الأقرب أن تكون حيا جديدا ، امتدادا لمدينة ، فلا يحتاج المرء الا الى خمس عشرة دقيقة ليقطعها ماشيا من أولها الى آخرها .

يوجد في وسطها ميدان كبير ، قام في احدى جوانبه أكبر مبنى ، شيد ليكون مقرا للجنة الحزب الاقليمية في هذه المنطقة .

اكتشفت في جولتي الأولى ، أن بجانب مبنى الحزب الضخم سينما حديثة ، ومنزل لـ ١٧.٥.٧٧.٥.٧ وأمين الحزب ، ورئيس مجلس المدينة في « كاراجندا » غير أنه كان صغيرا . ويبدو أن بقية المنازل كانت سكنية ، وفجأة وقفت أمام مبنى حديث مستطيل ، يتكون من طابقين ، وسرعان ما رأيت عليه لافتة مكتوب عليها « معهد كاراجندا للمعلمين » ، دلفت اليه مسرعا والفرح يملأ جوانبي ، وسرعان ما عثرت على السكرتارية . أطلعتهم على دفتر تسجيل المحاضرات ( وهو دفتر رسمي ، يبين فيه العلوم التي درسها الطالب ) التي حضرتها في موسكو .

— « اذا أردت الدراسة هنا ، فستطيع أن تبدأ من غد ، والمحاضرات تبدأ في الساعة التاسعة صباحا ، ولكن لا بد قبل هذا من اتخاذ بعض الاجراءات البسيطة ، اذ ينبغي أن يكون معك تصريح للاقامة في هذه المدينة ... » .

وعندها تغير لون وجهي لسماع هذه الجملة — فأنا أعلم المصاعب التي يلاقها المرء لاستخراج أى أوراق رسمية — أسرعوا بادخال انطمانينة في قلبي بقولهم :

« سنكتب لك شهادة بأنك قبلت للدراسة هنا ، وسوف تقيم في مسكن الطلبة التابع للمعهد ، وبمقتضاها ستحصل بالتأكيد على تصريح الإقامة » .

توجهت الى قسم الشرطة بخطوات ثابتة ، وقلب مطمئن ، الى أنه لا عقبة أمام هذا الاجراء . وكان في قسم الشرطة عدد من اذ « كازاخستانيين » والمرحلين ، يبدو أنهم ينتظرون اتمام مثل هذا الاجراء : تصريح بالإقامة ، وشهادة تسجيل في سجل القاطنين في المدينة .

وقيل لى — بعد انتظار عدة ساعات — : « يجب أن تحضر موافقة من رئاسة الحى في « المدينة الجديدة » .

ذهبت الى مقر رئاسة الحى ، وهناك أيضا رأيت عددا كبيرا من الناس ينتظرون ، وأخيرا جاء دورى ، ثم قيل لى : « للأسف ! لا نستطيع اعطائك الموافقة ، الا بعد موافقة مجلس المدينة » .

اذن .. الى مجلس المدينة : نظر لموظف في مستندائى الرسمية بامعان :

بطاقة بدون خاتم ترحيل ، ولكن مكتوب فيها « ألمنى » ، وأوراق من اللجنة المركزية (M.O.P.R.) رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة ، ومن معهد موسكو للغات الأجنبية ، وتصديق من معهد « كاراجندا » للمعلمين ، بأننى قبلت للدراسة عنيه . ثم قال : « نعم .. ولكن من الضرورى أن يكون لدينا موافقة من لجنة الحزب المحلية » .

وبعد دقائق كنت أمام مبنى اللجنة المحلية للحزب في « كاراجندا » وعلمت من البواب أنه ينبغى أن أتجه بأوراغى الى مكتب الدعاية والتثقيف السياسى ، لأنه المكتب المختص بمسائل (M.O.P.R.) رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة ، والملاجئين السياسيين .

تجرى الأمور هنا على نحو مختلف عما صادفته في هذا اليوم في قسم الشرطة وفي مجلس المدينة . أنصت الى باهتمام اثنان من العاملين في أجهزة الحزب ولم يظهر العبوس على وجهيهما ، ربما لأن لديهما متسع من الوقت ، أو لأن لهما نفوذا أكثر ، وهموما أقل . سألونى عن أشياء كثيرة ، الى أن عرفوا كل شىء عنى : كيف جئت الى الاتحاد السوفييتى ! حياتى في الأعوام التى عشتها في بيت الأطفال رقم ٦ : دخولى منظمة

المشباب ،، دراستى فى موسكو ، الظروف التى مرت بى أثناء الترحيل ، رغبتى فى الالتحاق بمعهد « كاراجندا » للمعلمين ، وأخيرا محاولة الحصول على تصريح إقامة فى « كاراجندا » .  
— « لا تقلق ! فسندرتب كل الأمور » .

— « اذن أستطيع أن أحصل منكم الآن على الأوراق المطلوبة » ؟  
— « ليس من الضرورى الحصول على ورقة مكتوبة ، فتستطيع أن تنتقل اليوم الى معهد المعلمين ، وتمر علينا غدا » .

وهكذا عرفت لأول مرة بعد إقامتى ست سنوات فى الاتحاد السوفييتى شيئا عن العلاقة بين أجهزة الحزب ، والادارات الحكومية . علمت أن كلمة من عضو الحزب ، تعقبها محادثة تليفونية ، لها قيمة أكثر من أربع أوراق رسمية صادرة من جهات حكومية .  
كان عضو الحزب صادقا فيما قال ، فعندما عدت الى معهد المعلمين ، دعيت لمقابلة العميد ، فبادرنى قائلا :

« كل شىء على ما يرام ، لقد اتصل بى الرفيق من اللجنة المحلية للحزب » .



### فى معهد المعلمين

حصلت على دفتر تسجيل المحاضرات ، وأوصلتتى السكرتيرة الى حجرات نوم الطلبة ، فأدركت من النظرة الأولى ، أن الوقت الجميل فى معهد المعلمين للغات الأجنبية الممتاز فى موسكو ، قد ذهب ولن يعود ، فهناك كان كل اثنين أو ثلاثة فى حجرة ، أما هنا فينام — حشرا — فى العنبر ٢٠ طالبا تقريبا ، ولا توجد دواليب ، بل يجب على كل طالب أن يضع حاجاته فى حقيبة أو فى كرتون تحت السرير عرضة للأتربة .

درسنا التاريخ من الكتب الرسمية الموضوعة لمعاهد المعلمين فى جميع أنحاء الاتحاد السوفييتى ، ويستطيع الطالب أن يحصل من مكتبة المعهد على ما يسمى بـ « محاضرات المعاهد العليا للحزب عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى » ، ففيها تفاصيل لما وضع موجزا فى الكتب الرسمية التى تدرس ، لم تنتشر هذه المحاضرات للبيع ، بل طبعت تحت عنوان « مطبوعات مخطوطة » ، وأرسلت الى معاهد معينة فى الاتحاد السوفييتى .

كان معظم الطلبة من أبناء وبنات الاقطاعيين السابقين الذين نفوا في عامى ٣٠ - ١٩٣١ م الى « كاراجندا » • مضت اثنتا عشرة سنة على تجميعهم في هذا المكان ، والآن لأنهم لم يعودوا اقطاعيين ، بل اعتبروا « تروتسكيين » ، يعنى الأعداء رقم واحد ، فقد سمح لأبنائهم بالالتحاق بهذه الدراسة •

استطعت في اليوم الأول عقد صداقة مع بعض الطلبة ، كان معظمهم أطفالا ، عندما نفى آباؤهم الى هنا في بداية الثلاثينات من هذا القرن ، وقاسوا الكثير في طفولتهم • وعرفت من حديثى معهم ، كيف انتزعوا من منازلهم وأطيانهم ، وألقى بهم في هذه البرارى • تركوهم هنا طعمة للجوع والبرد ، الى أن أقام الآباء بالاستراخ مع الأحمات أكواخا من الطين • وهكذا تأثرت نفسياتهم في الأعوام الأولى من حياتهم بهذا العذاب الأليم • لم تكن الحياة سهلة في الاتحاد السوفييتى في بداية الثلاثينات بالنسبة لطفل ، أبوه كان صاحب أملاك شاسعة •

حدثنى أحد الطلبة حديثا صريحا عن الحياة في السنين الأولى بعد نفيهم الى هذا المكان :

« غالبا ما كان يدخل أعضاء الحزب ممتطين الجياد في المستعمرة ، وهى لم يكمل بناؤها بعد ، فاذا اقتصروا على الصياح في وجوهنا بالسباب والسخرية ، كان الخطب هينا ، ولكنهم كانوا يحضرون أحيانا ، وفي أيديهم مقارع ، يضربون بها كل من يقابلهم في الطريق • حتى الأطفال ، كانوا يفاجئونهم وهم يلعبون ، ويضربونهم بالمقارع ، ثم أخذنا حذرنا ، فكننا دائما اذا رأينا شخصا غريب قادمنا من جهة المدينة ، أسرعنا الى « المنازل » نختبئ فيها » •

حكى هذا دون أن يظهر على وجهه أى أثر للتأثر ، كما لو كان يحكى عن رعد ، انقشع عن المنطقة منذ وقت طويل • قال لى موضحا : « لابد أن تفهم ! لقد كانت أيام كفاح مرير ، لتحويلنا من حياة خاصة نتمتع فيها بالملكية الخاصة ، الى حياة جماعية ، يسلب الانسان فيها كل شىء حتى حريرته • وكان بعض أعضاء الحزب الصغار ، يتصرفون معنا تصرفات مشينة ، ولكن استنكرت هذه الأعمال من الحزب فيما بعد • يحدث مثل هذه الأعمال في التحويل الاجبارى الى حياة جماعية ! » • وافقته على هذا الرأى ، ولكنى فكرت بعد أقل من لحظة ، في أن

من الأمور الغريبة . أن يحاول ثاب سوفيتي تبرير عمل من ضربه بالمقرعة ، أو لطمه على وجهه ، بأن هذا أمر حتمته الظروف .

تكرر حديثنا عن الحياة في المزارع الجماعية ، ولكن مع طلبة آخرين مروا بهذه الظروف العصبية ، فلم أجد واحدا يرفض « مبدأ » الحياة الجماعية .

كان معظم الطلبة يذهبون في آخر الأسبوع الى أسرهم ، بمعنى يعود الطالب الى احدي المستعمرات في المناطق القريبة أو البعيدة حول « كاراجندا » حيث يقيم والده ، فاذا عادوا سمعت من كثير منهم سُكاوى من الوالدين :

« لم يفهموا بعد ، لقد حاولت كثيرا أن أشرح لهم أن الحياة الجماعية ، هي الأسلوب الصحيح . ولكن الوالدين لن يدركوا هذا اطلاقا » .

أصبح أبناء وبنات الاقطاعيين السابقين — الذين بقوا في طفولتهم مع آبائهم الى هنا — بمرور الوقت « ستالينيين » فمما لا شك فيه أن من الممكن أن بعضهم يظهر ولاء وحبه لنظام « ستالين » رياء ونفاقا . ولكن يبدو أن معظم هؤلاء الطلبة فكروا تفكيرا مشابها لتفكير أصدقائي — وتفكيري — في موسكو ، الذين قبض على آبائهم في موجة « التطهير » التي حدثت من عام ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ م :

كانت المصائب التي لحقت بالأسر الخاصة مفرجة ، وبالتأكيد دون جرم ارتكبه أفراد الأسرة ، ولكن « مبدئيا » يجب أن نوافق على قيام الاتحاد السوفيتي ، ومن أجل هذا يتحتم تبرير كل الاجراءات الاستثنائية التي اتخذت .

لم يكن طلبة المعهد من الـ « كاراخستانيين » ومن أبناء وبنات الاقطاعيين السابقين ، بل كان بيننا أيضا عدد من أبناء وبنات كبار موظفي الدولة ، وشخصيات بارزة في الحزب : ابن وكيل النيابة ، وبنات سكرتيرة الحزب في المعهد ، وكلاهما أظهرتا بوضوح صلفا وتعاليا ، اعتمادا على مركز الأب والأم في الحزب والدولة . وقد كان مدرس التاريخ العام — وهو متين في مادته — يتضايق من تصرفاتهما . سألت مرة أحد الطلبة :

— « ما الذي بين هذين الطالبين وبين هذا الأستاذ بالضبط » ؟  
فقال هامسا :

— « مدرسنا مثل المنفى تقريبا » .

— منفى ؟

— « ليس منفا حقيقة ، ولكنه فنلندي ، فأثناء الحرب الفنلندية السوفيتية التي وقعت في عام ١٩٣٩ الى ١٩٤٠ م رحل كثير من الفنلنديين الى « لينجراد » ورحل هو أيضا الى « كاراجندا » ووضعه الآن يحتم عليه أن يكون حريصا جدا » .

وبعد أيام قليلة تأكدت بنفسى أن الحياة هنا ليست سهلة بالنسبة للمدرس الفنلندي . اذ بعد كل محاضرة يتحتم عليه أن يملأ علينا أسماء المراجع التي نرجع اليها في موضوعها ، ويقسم هذه المراجع بدقة الى مجموعتين :

١ — العصر الذهبي « للماركسية اللينينية » .

٢ — المراجع الأصلية .

فعل المحاضر هذا كعادته ، ولكن لم تكن مراجع المجموعة كافية لتوضيح الموضوع ، فأضاف أثناء تلاوته لأسماء المراجع كتاب « بلاخانوف » ، وفجأة قوطع من ابن وكيل النيابة :

— « أيكون كتاب « بلاخانوف » من مجموعة العصر الذهبي

« للماركسية اللينينية » أو من مجموعة المراجع الأصلية » ؟

احمر وجه المحاضر ، ثم تمالك أعصابه وقال :

« من الواضح أن كتاب « بلاخانوف » من مجموعة المراجع الأصلية ،

وأنتهز هذه الفرصة لأؤكد لكم أن مجموعة العصر الذهبي للماركسية

اللينينية هي فقط مؤلفات « ماركس و « أنجلز » ، و « لينين » .

ويتقدمها كلها مؤلفات الرفيق « ستالين » وقد ذكرت كتاب « بلاخانوف »

في هذه المحاضرات لأنه مفيد وهام في هذا الموضوع ، وقد بين ذلك

الرفيق « ستالين » في خطابه الكبير الذي ألقاه في ٦ نوفمبر سنة ١٩٤١ م .

تنفسنا الصعداء ، فقد خلص المدرس نفسه من « المطب » بطريقة

رائعة ، حتى لم يبق لابن وكيل النيابة شيئا سوى الايماء برأسه موافقا

على هذا التوضيح ، لأن المحاضر ختم اجابته — بطريقة لبقة — بقرائة

بعض جمل من خطاب « ستالين » .

ولكن كم من الصخور أزال هذا المدرس من طريقه ! ، وكم سيعترض

طريقه في المستقبل ! لاشك أنه ليس من السهل أن يشتغل مرحل مدرسا .

## « أنا أقابل » أولبريخت » في « كاراجندا »

خرجت من قاعة المحاضرات في ضحى أحد الأيام ، فتوجهت الى  
سكرتيرة المدير مرتبكة ، وقالت :

« اتصل بنا قسم الشرطة من لحظات ، وطلبوا أن تذهب اليهم  
سريعا » .

الى قسم الشرطة ؟ شئ مزعج ! ولكن لا أذكر أنى اقترفت ذنبا .  
ذهبت الى هناك ، فقيل لى : « يجب أن تدخل على رئيس القسم  
شخصيا » .

نظر الى رئيس القسم — وهو رجل « كازاخستانى » — غاضبا  
مهيدا :

« هل أنت الألمانى « ليونهارد » أنا أبلغك الآن بهذه الاشارة :  
« يجب أن تغادر « كاراجندا » فى ظرف ٢٤ ساعة » .

وقفت كالمثلول ، ألم يستخرج تصريح اقامتى بعد موافقة لجنة  
المنطقة ؟ هل قرار الابعاد الذى صدر فى سبتمبر سنة ١٩٤١ م بالنسبة  
للاقطنين فى موسكو ، والمدن الكبرى الأخرى ، الواقعة فى مناطق الاتحاد  
السوفييتى الغربية ، سيطبق الآن على كل المدن فى الاتحاد السوفييتى ؟  
— « الى أين أسافر ، اذا كان محتما على أن أغادر « كاراجندا » ؟  
هل يجوز لى أن أسافر الى « ألما — أتا » ؟

— « يستوى الأمر عندى ، الى أى مكان تذهب . كل المدن مقفولة  
فى وجه الألمانين ، تستطيع أن تختار أى مكان فى منطقة « كاراجندا »  
ما عدا المدينة . سافر الى مستعمرات « أوسكوروغكا » ، فهناك  
ألمانيون كثيرون » .

— « أيها الرفيق القومندان ! أنا عضو فى منظمة الشباب منذ  
سنين عديدة ، وتحديث هنا مع الرفقاء فى قسم الدعاية والتثقيف السياسى  
فى لجنة الحزب المحلية ، وأوصوا بالموافقة على تسجيلى هنا وقالوا لى :  
ان كل شئ سينظم » .

ازدادت علامات الغضب على وجه رئيس القسم وقال :

« أنا لا أعلم هذا ! ولكنى قلت لك ان قرار الابعاد سار على كل  
الألمانين ، فاذا لم تغادر المدينة فى ظرف ٢٤ ساعة ، فسوف ترتكب  
مخالفة قانونية ، وسوف تتحمل مسؤولية ذلك . هل هذا واضح الآن » ؟  
كان واضحا .

أردت أن أقوم بآخر محاولة ، فذهبت مرة أخرى الى مقر اللجنة المحلية للحزب ، الى قسم الدعاية والتثقيف السياسى ، الى هؤلاء الرفقاء ، أعضاء الحزب الذين ساعدونى فى المرة الأولى ، وقلت لهم : — « لقد أخبرنى رئيس قسم الشرطة ، أنه يجب على لمغادرة « كاراجندا » فى ظرف ٢٤ ساعة » -

ظهرت علامات الجذ على وجه عضو احزب :

— « نعم أيها الرفيق « ليونهارد » ! هذه أوامر من الجهات العليا .

ولا نستطيع أن نعمل شيئا الآن » •

تبدلت الصورة التى أخذتها عن أعضاء الحزب فى الزيارة السابقة.

اذ ظهر لى الآن أنهم ليسوا على كل شىء قادرين •

— « لا تئأس أيها الرفيق ( ليونهارد ) ! ان من الممكن ، بل من

المحتمل جدا ، أن يتخذ قرار فى وقت قريب بالنسبة لوضع الألمانين

اللاجئين سياسيا • ربما يستثنى اللاجئون من قرار الابعاد هذا • على

كل اذا وجدت مسكنا ، فابعث البنا — من فضلك — عنوانك ، وسوف

نخبرك بسرعة ، اذا ظهرت لنا أى فرصة ، ولكننا الآن — للأسف .

الشديد — لا نستطيع أن نفعل شيئا •

أصبح مؤكدا أنه يجب على مغادرة « كاراجندا » فى ظرف ٢٤ ساعة .

— الآن أصبحوا ٢٣ ساعة — وترك معهدى الصغير « معهد المعلمين » .

وأصدقائى الذين تعرفت عليهم حديثا ، وزملائى فى الدراسة • لقد تعلمت :

اذا لم يستطع عضو الحزب أن يعمل شيئا ، فمن العبث الالتجاء الى

مكان آخر طلبا للمساعدة •

لن يسافر « الأتوبيس » الى المدينة الا فى المساء ، ولن يستغرق

حزم أمتعتى القليلة وقتا طويلا ، اذن فعندى وقت فراغ طول اليوم •

سرت حزيننا مكتئبا عبر شوارع « المدينة الجديدة » ، واقتربت .

من البيت التجارى الوحيد ، فرأيت خلف خوان عرض ابضائع ، رجلا

طويلا ، يرتدى حذاء من الفرو ، برقبة عالية تصل الى الركبة ، وقلنسوة

من الفرو ، ومعطفا ثقيلنا من الفرو أيضا • وبدا وكأنه باحث فى مناطق

القطب • ثم سمعت صوتا لم يكن غريبا على ، وعندما اقتربت ، سمعت .

أن هذا الباحث فى مناطق القطب يتحدث الروسية بلكنة ألمانية •

وفى هذه اللحظة عرفته ، كان « هانز حالى » الذى تعرفت عليه أثناء .

دورة دراسية في موسكو في نوفمبر سنة ١٩٤٠ م ، وتحدث في تليفزيون موسكو بعد بدء الحرب مرات عديدة • اندفعت اليه :

« هانز » ! هذا رائع ! كيف جئت الى هنا ؟

سربلقائى أيضا ، ولكنه راوغ في الاجابة على سؤالى :

« نحن على سفر مع مجموعة من الرفقاء ، وتوقفنا في هذه المدينة لبعض الوقت ، وسوف نمكث هنا أياما ، في هذه المنطقة • وأنت ؟ أخبرنى ! ماذا تعمل هنا ؟ »

— لقد سافرت مع المرشحين في ٢٨ سبتمبر ، فوصلنا في منتصف أكتوبر الى « أوسكوروفكا » على بعد ١٢٠ كيلو متر من « كاراجندا » ، فوزعنا جميعا على المزارع الموجودة في المنطقة ، ولكن لم يكن في بطاقتى خاتم الترحيل الاجبارى ، فجئت الى هنا ، وأدرس الآن فى 'معهد المعلمين' •

« اذن •• فالأمور تسير عندك على ما يرام ؟ »

— « للأسف لا يا « هانز » ! حدث شئ مزعج اليوم بالذات ، فقد استدعيت الى قسم الشرطة ، وهناك أخبرت بأننى لأبد أن أغادر « كاراجندا » فى ظرف ٢٤ ساعة ، والآن ، لا أعلم اطلاقا ، ماذا أفعل ! »  
— « حسنا ! فقد وصلنا فى الوقت المناسب ! ان من الأحسن أن تأتى معى الآن ، سوف أقدمك الى الرفيق « ألبريخت » ورفقاء الآخرين • »

— « ألبريخت » فى « كاراجندا » ماذا يعمل « ألبريخت » فى « كاراجندا » فى ديسمبر سنة ١٩٤١ ، لا ينبغى أن أسأل ، فقد عشت فى الاتحاد السوفييتى وقتا طويلا ، وهو وقت كاف لأعلم أنه لا يجوز للمرء أن يسأل عن أمور الحزب ، وينتظر حتى تبلغ اليه •

وبعد دقائق قليلة وصلنا الى الفندق ، وهو الفندق الوحيد فى المدينة ، الذى قضيت فيه أول ليلة فى « كاراجندا » ، كان يقف أمامه ٥ أو ٦ أشخاص ، وكانوا كلهم يرتدون ملابس مثل « هانز مالى » • لم أعرف أحدا منهم آنذاك معرفة شخصية ، لم يكن معروفا لدى سوى وجه « ألبريخت » عن طريق المحاضرات الثقافية فى موسكو التى امتدت من خريف عام ١٩٤٠ م حتى يونيو عام ١٩٤١ م •

قادنى « هانز مالى » الى « ألبريخت » فسلم على بعدم اكتراث ، وتمتم بكلمات لم أفهمها ، ربما كانت « نهارك سعيد » هكذا حدث :

كما لو كان من الأمور المسلم بها في اعالم أن يلتقى اللاجئون سياسيا من الألمانين ، يتقابلون في « كاراجندا » في ديسمبر سنة ١٩٤١ • ثم قدمت الى احدى الرفيقات اسمها « لوتى كوني » • سمعت الاسم آنذاك لأول مرة ولم أعلم الا بعد أربع سنوات أنها زوجة « أولبريخت » • ظللنا واقفين أمام الفندق ، وفي أثناء ذلك وقفت عربتا جيب أمريكية النصح • يبدو أن أعضاء الحزب عازمون على السفر في مدى دقائق •

سألوا بعض الأسئلة عن اللاجئيين الذين رحلوا الى هذه المناطق المجاورة لـ « كاراجندا » فشرحت لهم باختصار — بأسلوب تلغرافي — أحوال الذين أعرفهم من الرفقاء ، وعن المأساة التي يعيشون فيها ، ولكن أعضاء الحزب كانوا ينصتون الى بعدم اكتراث ولم يستفسروا عن شيء •

ظهرت مأساة الرفقاء الألمانين الذين رحلوا ، لهؤلاء الذين كانوا زعماء بارزين في الحزب الشيوعي الألماني مسألة غير ذات أهمية ، ويبدو أنهم — هكذا فهمت — لم يجيئوا الى هنا بسبب مسألة اللاجئيين السياسيين •

— « وأنت ؟ تسكن في « كاراجندا » ؟ »

— « نعم ! ولكن هذا آخر بوم لي فيها •• أنا أدرس في قسم التاريخ بمعهد المعلمين ولكني تلقيت اليوم أمرا صارما بمغادرة « كاراجندا » في ظرف ٢٤ ساعة » •

أشار « أولبريخت » بيده اشارة توحى بأن ذلك لن يكون ، ثم قال : « ستتظم الأمور ، فسوف نجتمع في غضون الأيام التالية مع أعضاء الحزب في اللجنة المحلية ، وأنت مدعو لحضور هذا الاجتماع معنا » •

وفي هذه الأثناء كانت سيارة انجيب قد استعدت للانطلاق ، وركب فيها الرفقاء •

استدعيت ظهر ذلك اليوم للذهاب الى مقر الحزب ، ضحك مسئول قسم الدعاية والتثقيف السياسى وقال :

— « كل شيء على ما يرام ، فتستطيع البقاء في « كاراجندا » ، وسوف يكون هنا في غضون الأيام التالية ، مؤتمر في مقر الحزب لكل اللاجئيين السياسيين ، الذين يقيمون في منطقة « كاراجندا » ولما كنت هقيما في المدينة نفسها ، وتدرس هنا فتستطيع أن تحضر هذا المؤتمر • وسوف نتحدث على كل شيء في الاجتماع •

— « هل يمكن أن أسأل عن موعد عقد هذا المؤتمر بالضبط » ؟  
— « مقرر له حتى الآن يوم ٢٢ ديسمبر ، بعد ما يعود الرفيق ،  
« أولبريخت » مع الرفقاء الآخرين من زيارتهم معسكر أسرى الحرب » •  
معسكر أسرى الحرب ؟ أسمع هذا لأول مرة ، ولهذا جاء وزملاؤه  
الى هنا • لم يكن عندى أى فكرة عن وجود معسكر أسرى بالقرب من  
« كاراجندا » • ولم أسمع أيضا — أثناء اقامتى هناك مدة عشرة أشهر  
بعد هذا التاريخ — شيئا عن هذا المعسكر ، ولا عن عدد من فيه من  
الأسرى •

ليست هذه الواقعة من الأمور الغريبة ، اذ يحدث فى الاتحاد  
السوفييتى ، أن الناس الذين يعيشون فى مدينة ، عشرات السنين ،  
لا يحسون بالمؤسسات التى تقام داخل المدينة ، أو فى المنطقة المحيطة بها ،  
فضلا عن التّكتم على وجود معسكر ، أو معسكر للأسرى •

\* \* \*

### مؤتمر اللاجئيين

بدأ مؤتمر اللاجئيين السياسيين الألمانين فى ٢٢ ديسمبر سنة  
١٩٤١ فى مقر الحزب فى « كاراجندا » • كانت هناك لقاءات وسلامات ،  
وعلت الابتسامة على الوجوه تعبيرا عن فرحة اللقاء مرة أخرى • قابلت  
الثلاثة الذين اشتركوا فى الحرب الأسبانية ، وكانوا زملائى فى عربة  
ابضاعة أثناء الرحلة من موسكو ، وقابلت أيضا صديقتى « ارمجراد  
سيكيرت » ، وابنتى الكاتب الألمانى « ألبرت هوتو » الذى اعتقل  
بعد بدء الحرب بوقت قصير ، ولاجئيين آخرين ممن كانوا معى فى  
القطار ، ويقيمون الآن فى منطقة « أوسكورفكا » ولكنى سررت جدا  
بلقاء أصدقاء ترجع صداقتهم الى الأعوام التى كنت مقيما فيها فى  
« بيت الأطفال » رقم ٦ ، لأنى لم أرهم منذ زمن بعيد • وهم يقيمون  
هنا منذ مدة طويلة ، لأنهم كانوا ضمن أول مجموعة رحلت من موسكو •  
ازداد عددا شيئا فشيئا ، حتى بلغ خمسين لاجئا سياسيا ألمانيا  
فى صالة مقر اللجنة المحلية للحزب ، ثم دعينا للدخول الى قاعة الاجتماع •  
كان جوا يثير الانتباه : امتلأت القاعة الجميلة بأثاثها الفخم —  
التي لم يدخلها سوى الروسين و « الكازاخستانيين » ذوى الملابس  
الأنيقة الغالية الثمن — لأول مرة فى تاريخ الحزب فى « كاراجندا »  
بألمانين فقط ، وكان مفاجعا أن يرى المرء ، كيف غيرت المأساة وجوه  
( م ١٣ — نظام الحكم الشيوعى )

اللاجئين الألمانين : إذ لم يمض أسبوعان على اقامتهم في « كاراجندا » حتى ظهرت علامات البؤس . والفقر والجبن على وجوههم . لم تتأثر نحن الشباب بهذا كثيرا ، ولكن كبار السن عانوا من الترحيل الاجباري ، ومن الجوع ، ومن الظروف القاسية التي يعيشون فيها في « كاراجندا » فظهر ذلك واضحا على وجوههم .

فلو فرض أن رآهم واحد خلى الذهن من هذه الأحداث ، ما صدق ابن الجالسين في هذه الصالة المانيون . أصبح الجو باردا في « كاراجندا » فوصلت درجة الحرارة الى ٤ درجة تحت الصفر ، ولم يتميز اللاجئين عن المنفيين من الروسيين ، ارتدوا على أجسامهم ملابس غير ملائمة ، لبسوا أعدادا منها ، قطعة فوق الأخرى ، ويبدو أنهم لبسوا كل ما لديهم من ملابس . لم نكن نتصور أن الجو سيتقلب في غضون أسابيع قليلة به ويصبح شديد البرودة بهذا الشكل .

ثم دخل القاعة زعماء الحزب في « كاراجندا » المسئولون عن مكتب الدعاية والتنقيف السياسي ، ومعهم « فالتر أولبريخت » . وافتتح المؤتمر ، فبدأ أحد زعماء اللجنة المحلية للحزب في « كاراجندا » يلقي كلمة الافتتاح باللغة الروسية :

« دعت اللجنة المحلية للحزب في « كاراجندا » اللاجئين الألمانين الرفقاء اللاجئين سياسيا ، هكذا قال بالحرف الواحد الى الاجتماع للتباحث معهم حول بعض المسائل السياسية ، وأهمل أخرى ، وينسرتني أن يكون بيننا اليوم الرفيق « أولبريخت » ، وأعطيه الكلمة ليحدثنا عن المسائل السياسية » .

توجه « أولبريخت » الى منصة اللقاء ، هادئا ، واثقا من نفسه مباشرة كما لو لم يحدث في الشهور الأخيرة شيء ذو أهمية . وسرّخ فكري — دون قصد — الى المرة السابقة ، عندما سمعته في ٢٢ يونيو سنة ١٩٤١ في موسكو ، يوم أن ألقى محاضرة في دورتنا الثقافية ، التي أقيمت آنذاك ، لم يمض على هذا سوى ستة أشهر فقط ، ولكن ، كم من الأحداث وقعت في هذه المدة ! غزت القوات الألمانية « ايستلاند » و « ليتلاند » وروسيا البيضاء ، وأخضعت بسرعة عجيبة الجزء الأكبر من « أوكرانيا » وحاصرت « ليننجراد » ، والتقت حول موسكو من ثلاث جهات تقريبا . وهجر (١) ملايين من الناس ، جميع السكان الألمانين

(١) بضم الهاء وكسر الجيم مع التشديد .

في جمهورية « فولجا » ، وكل الألمانين في الاتحاد السوفييتي • والآن !  
وبعد ستة أشهر من بدء الحرب ، يتقابل الألمانيون اللاجئون سياسيا  
في « كاراجندا » •

لم يقل « أولبريخت » في كلمته شيئا جديدا ، واقتصر في معظمها  
على ترديد ما يقرأ في الصحافة السوفييتية يوميا • واطهارا لاختلاصه  
لنظام الحاكم آنذاك ، بين في كلمته أن الوضع الاقتصادي السيء في  
ألمانيا ، والنقص في المواد الخام ، وخاصة مواد الوقود ، سوف يرغم  
ألمانيا على الانسحاب ، وتحدث عن ازدياد عمليات المقاومة في البلاد  
التي احتلتها القوات الألمانية ، وعن انتشار السخط والتذمر في ألمانيا  
نفسها ، وأخيرا أشار الى أن الموقف انقلب نسيبا ضد هتلر بعد هجوم  
اليابان على ميناء « اللؤلؤ » ودخول أمريكا الحرب ضد قوى المحور —  
ولكن كنا نعرف هذا أيضا من الصحافة السوفييتية •

وفي آخر كلمته ، قال لنا شيئا لم نكن نعلم به قبلا : تحدث عن  
العمل في معسكرات أسرى الحرب ، الذي بدأ في الأسابيع الأخيرة  
فقال : « هذا العمل يهدف الى تحويل الأسرى — مستقبلا — فكريا  
ليصبحوا ضد الفاشية » ، ثم أخرج بعض الأوراق من حقيبته ، وصاح  
بأعلى صوته : « هذا نداء ١٥٨ أسيرا ألمانيا » • ثم قرأ بعض الفقرات ،  
وصفها بأنها وثائق هامة ، ذات دلالة على التغيير • وشرح جمل النداء  
جملة جملة •

أنهى « أولبريخت » كلمته ، فصفق الحاضرون كما هو متبع ، ولكن  
أمكن للمرء أن يتبين أن كثيرا من الحاضرين لم يتابعوا كل ما قاله  
« أولبريخت » ، كانوا بسبب الارهاق الشديد ، والجوع ، والضعف  
غير قادرين على متابعة خطبة سياسية ، مثل ما كانوا يفعلون في الأيام  
العادية •

ثم أعلن في النهاية أننا سنناقش مشاكل الأحوال المعيشية للاجئين  
المقيمين في منطقة « كاراجندا » ، بعد أن نتناول معا طعام الغداء •  
اللقاء ، ومحاضرة « أولبريخت » وقبل هذا ، الأمل في أن تحل بعض  
المشاكل عمليا في المناقشة التي ستدور بعد الغداء — كل هذا رفع من  
معنويات هؤلاء البؤساء في حياتهم ، في تلك المنطقة •

دعينا الى مائدة شهية ، حافلة بألوان الطعام ، أعدت المائدة  
بجوارنا ، ووضع الطعام على مقربة من بطوننا ، التي تصيح من ألم  
الجوع •

كيف تحول الجو بسرعة ؟ لا أدري ! اذ سرعان ما نبسى هؤلاء — وهم على مائدة الطعام — المأساة الفظيعة التي مروا بها في الأسابيع الأخيرة من جوع ، وبرد ، واهانة ، وبدأوا يتذكرون حياتهم في موسكو ، أو يتحدثون عن مناظر مضحكة فابلتهم أثناء رحلتهم . لا يمكن أن يصدق أحد ، بأن هؤلاء الناس الذين تبندو عليهم الآن علامات السرور والفرح ، جاءوا قبل بضع ساعات إلى مقر الحزب ، بمنحنية ظهورهم ، منكسة رؤوسهم من هول ما يلاقونه ، ذليلة نفوسهم من وطأة المأساة التي يعيشونها .

انتظرنا جلسة بعد الغداء بأعصاب مشدودة ، تلك الجلسة التي — كما كنا نأمل — ستغير حياتنا في « كاراجند » .

بدأ « فالتر أولبريخت » ومعه اثنان من زعماء مكتب الدعاية والتثقيف السياسي — اللذين كانا مرجحين بشكل ملحوظ ، ولكن كما تأكدت ليس لهما نفوذ كبير — والسكرتيرة المحلية — (M.O.P.R.) « رابطة التنظيم العالمي لحماية المناضلين من أجل الثورة » ، بدأوا معنا مناقشة المشاكل العملية في حياتنا الراهنة .

أشار أحد المسؤولين في المكتب السياسي في كلمة افتتاحية قصيرة إلى الوضع العام الذي يقاسى منه الشعب السوفييتي ، وإلى المصاعب الضخمة ، والضروريات ، التي تحتم التضحية في هذا الوقت ، وإلى أنه ينبغي علينا تحمل الحياة القاسية بصبر وثبات . وعلى الرغم من أن المصاعب ضخمة جدا ، والوسائل محدودة — هكذا بين في كلمته — سوف تقوم اللجنة المحلية للحزب في هذه الأيام الحالكة ، بعمل ما في وسعها ، لتخفف من شدة قسوة الحياة بين الألمانين اللاجئيين سياسيا . ومن المستحسن أن يكون هناك اتصال دائم بين اللاجئيين السياسيين وبين اللجنة المحلية لـ « رابطة التنظيم العالمي لحماية المناضلين من أجل الثورة » . ومن المؤكد أن الرابطة سوف تقدم المساعدات لهم كلما أمكن ذلك .

وضح لي من كلام عضو الحزب ، أنه يتألم شحصيا من وضعنا السيئ ، ولكن ليس له من النفود ما يمكنه من أن يغير كثيرا من هذا الوضع ، فأشارته إلى « رابطة التنظيم العالمي لحماية المناضلين من أجل الثورة » — وهي كما أعلم منظمة ليس لها نفوذ كبير — بينت ذلك بما لا يدع مجالا للشك . لم يكن التركيز على ما يقاسيه

الشعب السوفييتي في هذا المجال لازما : اذ لم يفكر أحد من اللاجئيين في أن يطالب بأشياء يصعب تحقيقها فكنا يعلم جيدا ، مدى الصعوبات التي يمر بها الشعب السوفييتي في هذا الوقت ، ولهذا لم يخطر ببال أحد أن يرفع شكوى لتحقيق شيء أكثر من الأمور الضرورية ، المتواضعة جدا .

ثم طلب من الرفقاء واحدا بعد الآخر ، ذكر الاسم والعنوان السابق ، ومحل العمل ، وأن يشرح متاعبه باختصار ، ويبدى رغباته . لاحظت الآن لأول مرة مدى حسن أحوالي على ما فيها ، وكيف أنقذت من الوقوع في مثل هذه المشاكل ! كان وصف الرفقاء ، تشيب من هوله الرؤوس ، لقد أذلهم رؤساء المزارع الجماعية ، وقواد جنود الحراسة ، وسخروا منهم بالسب ، واللعن ، والشتم ، لأنهم الألمان ، وكانوا ينادونهم بكلمات ألقذ المفضوح ، وتعرضوا أحيانا للإهانة بالضرب . ووضعوا عمدا في كثير من الحالات في مرتبة معيشية دائية . وعندما حاولوا رفع شكواهم معبرين عن سوء أحوالهم المعيشية قيل لهم : « لا يوجد شيء لكم أيها الألمان ! ولتكونوا مسرورين ، إذا حصلتكم على أي شيء تأكلونه » .

وأرسل بعض اللاجئيين الألمان إلى بيوت ، في ستوفها فتحات ، وفي حوائطها ثقوب ، وتركوا نهبا للريح ، الذي يجمد الأطراف دون حماية من هذا الجو المهلك .

وصفوا أحوالهم بواقعية ، دون حنق أو ضعينة ، كان مذهلا ! كيف تحمل اللاجئون هذه الآلام ، وكيف صبروا هادئين على هذه المآسى ! كذلك كانت رغباتهم متواضعة ، طالب معظمهم فقط برفع هذا الظلم الفادح ، عن طريق مكالمة تليفونية ، أو خطاب صغير من اللجنة المحلية للحزب .

وقدمت الاستعطافات من هنا وهناك في طلب بعض الملابس ، أو الأغطية أو قطع الصابون ، أو مواد غذائية ، فلقد كنا نحصل آنذاك — باستثناء عدد قليل كان ينجز بعض الأعمال الخاصة — على ٣٠٠ جرام خبز مبلول يوميا ، أما إذا كان الخبز ناشفا فيتراوح وزنه بين ٢٠٠ و ٣٠٠ جرام ، ولا شيء خلاف هذا ، فلم نأخذ دسما ، ولا سكرا ، ولا لحما .

فبينما المواطنون السوفييت الذين كانوا على اتصال بالريف

يلجأون الى أصدقائهم وأقاربهم للحصول على مواد غذائية ، كنا نحن الملاجئين الألمانين — الذين انتقلوا الى جو غريب عنهم كلية — نقاسى من المصاعب بصورة مزعجة •

كانت هذه المطالب ضرورية بشكل خاص بالنسبة للمسنين والمرضى ، وكذلك للمحاربين القدامى ، الذين اُستزكوا في الحرب الأسبانية ، ويمكن تحقيقها رغم الظروف الصعبة ، فليس عضو الحزب هو الذى يعلم فقط — بل كل واحد منا أيضا — أنه يوجد فى كل مكان فى منطقته « كاراجندا » — كما هو فى كل مكان فى الاتحاد السوفييتى — محلات ، ومطاعم ، وموزعون وراء الكواليس ، تعطى بضائعها لطبقة معينة ، وكل واحد يعلم أن فى هذه المحلات والمطاعم بضائع وأغذية مقدسة فى هذا الوقت العصيب على سكان الاتحاد لسوفييتى ومن المؤكد أن بإمكان « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » الحصول على كمية من هذه الأغذية ، لتسجد رمق أولئك الرفقاء ، الذين خدموا الدولة عشرات السنين ، وأولئك الذين وضعوا حياتهم على أكتفهم فى الحرب الأسبانية • ولكن لم يذكر أحد شيئا عن هذه المحلات المتوارية خلف الكواليس ، أغفلت ، وكأنه لا يوجد هذا النوع من التجارة السوداء على الإطلاق ، ولأن الأمر يتعلق بشيء « لا يجوز الحديث عنه » ، وخاصة إذا كان هذا الشيء يمس الجهة الرسمية ، ويغضبها ذكره ، فلم يتكلم أحد من الملاجئين ، ولم يشر اليه مجرد اشارة ، وأسدوا عليه ستارا كثيفا •

أجيب على الرغبات المادبة المتواضعة ، والتوسلات لتحقيق طلبات المساعدة بأن « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » ستتولى القيام بهذا كله فى حدود الامكانيات •

كان كل واحد منا يعلم أن المسألة انتهت بهذا الوعد ، لأنه كان واضحا أن تنظيما ضعيف النفوذ مثل « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » لا يمكنه توفير الغذاء والملابس فى مثل هذه الظروف •

وكلما طالبت المناقشة ، ازداد الأمر وضوحا بأن حالة الملاجئين السياسيين لن يتغير فيها شيء اطلاقا •

ومما لا شك فيه ، أن هذا لم يكن ذنب عضوى الحزب اللذين ينحملان قيادة أنظمتهم فى هذه المنطقة ، فقد أبدى الرغبة فى المساعدة

في دائرة نفوذهم ، ولكنهما لا يملكان هذا الأمر في أيديهما ، لأن نفوذهم محدود .

وجاء دورى في آخر القائمة — ربما لأنى أصغرهم — ، فعبرت عما أطلبه في جملتين : أن أستمّر في دراستى في المعهد ، ويسمح لى بالاقامة في « كاراجندا » .

وتحقّق لى هذان المطلبان ، إذ قال أحد العضوين :

« هذا ممكن عمله ، فتستطيع أن تذهب في غضون الأيام التالية الى قسم الشرطة ، وسيعطوك تصريح الإقامة ، لتستمر في دراستك في المعهد » .

انتهى مؤتمر اللاجئين بعد البقاء كلمة ختام قصيرة ، وأصبح واضحاً لدى الجميع ، أنهم سيقضون وقتاً ليس بالقصير ، في منطقة « كاراجندا » . وأن وضعهم الحالى ، ليس نتيجة اجراءات خاطئة ، اتخذتها لجنة الحزب المحلية ، بل « الخط الرسمى » الصادر من الجهات العليا ، ولكن سوف يتجنب مستقبلاً المبالغة في تنفيذ الاجراءات .

وتبخرت الآمال التى دارت بأفكار كثيرين في بداية اللقاء ، ولكننا — كلنا — عشنا في الاتجاد السوفييتى وقتاً يكفى لأن ندرك أنه لا مجال للشكوى ، وأنه لا بد أن نتعود على كل الظروف ، وألا ننتظر رؤية أى شىء ايجابى في تلك الظروف القاسية المؤلمة . واعتقد بعضنا « أنه سيكون بيننا وبين الحزب اتصال » ، « ولا شك في تكرير مثل هذا اللقاء » . ولم يحدث هذا ، فقد كان مؤتمر ديسمبر هو اللقاء الوحيد الذى نظم للاجتماع باللاجئين السياسيين الذين نفوا الى منطقة « كاراجندا » . لم أر فيما بعد واحداً من اللاجئين السياسيين ، الذين حضروا هذا الاجتماع الذى عقد في ديسمبر سنة ١٩٤١ م في « كاراجندا » . ما عدا « ارمجارد سيكيرت » التى عادت الى ألمانيا في عام ١٩٤٧ ، وأمتغت في اذاعة ألمانيا الشرقية ثم في وزارة الخارجية في حكومة المنطقة السوفييتية (١) .

ومن الممكن ، بل من المحتمل جداً ، أن هؤلاء الرفقاء الذين خدموا

(١) يعنى المؤلف ما يعرف باسم ألمانيا الديمقراطية ، فالغزبيون يسمونها بهذا الاسم ، لأنهم لا يعترفون بها كدولة ، وانما منطقة يحتلها السوفييت .

الحزب عشرات السنين ، لا يزالون يقيمون في منطقة « كراجندا » ،  
إذا لم يكونوا قد هلكوا من الهم ، وافقر .

لم تذكر الجهات الرسمية في المنطقة الألمانية المحتلة من الاتحاد  
السوفييتي شيئاً بعد عام ١٩٤٥ عن اللاجئيين السياسيين في الاتحاد  
السوفييتي ، والمرة الوحيدة التي جاء فيها ذكر شيء عن هؤلاء اللاجئيين  
بوم أن نشرت صحيفة « ألمانيا الجديدة » الناطقة بلسان « الاتحاد  
الاشتراكي الألماني » نبأ عن وفاة الفنان الألماني « هاينريش  
فوجيلر » وجاء في هذا الخبر : أنه توفي في عام ١٩٤٢ م في « كازاخستان »  
حيث أجلى — رحل — عن موسكو احتياطياً .

من رحل إجبارياً معه ، وأقام في منطقة « كراجندا » ؟ يعلم هذا  
فقط أولئك الذين رتبوا و نفذوا هذا « الاجلاء الاجتياطي » .



### حياتي في « المدينة الجديدة »

بدأت حياتي العادية في « كراجندا » عقب انتهاء المؤتمر ، فقد  
كان نقطة انطلاق طيبة بالنسبة لى . وعلى الرغم من أنه لم ينشر شيء  
عن هذا المؤتمر في الصحافة ، حتى ولا في الصحيفة المحلية « كراجندا  
الاشتراكية » ، فلم يقتصر الخبر على كبار أعضاء الحزب في اللجنة  
المحلية ، بل علم به أيضا المدرسون في معهد المعلمين .

أحدث هذا عندي شعورا بالارتياح النفسى ، ففى اليوم التالى  
لمؤتمر اللاجئيين وجهت الى أسئلة من المدير ، ومن سكرتير الحزب ،  
ومن بعض المدرسين ، عما اذا كان المعهد قد أعجبني ! وعما اذا كنت  
مسرورا بالدروس ! وعما اذا كان عندي اقتراحات يجب الأخذ بها !

ثم قبلت بعد هذا مباشرة عضوا في منظمة الشباب المحلية ، دون  
أدنى صعوبة ، ثم عينت سكرتيرا مسؤولا لـ « رابطة التنظيم العالمى  
لحماية المناضلين من أجل الثورة » وفي احدى الاجتماعات العادية انتخبت  
عضوا في مجلس رئاسة المعهد .

أصبح التغيير المفاجيء في وضعى أكثر وضوحا في الأيام التالية :  
ذهبت بعد أيام قليلة من عقد المؤتمر للتجول في « المدينة الجديدة »  
وأثناء سيرى في الشارع ، سمعت ورائى وقع أقدام خيول ، تجر عربة ،  
وتسير ببطء ، فنظرت اليها ، وفجأة رأيت يدا تلوح لى بحرارة محيية .

تحية مفزعة ، لقد كان رئيس قسم الشرطة ، هو بنفسه الذى أصدر أمرا بطردى من « كاراجندا » قبل بضعة أيام •  
« اذا لم تغادر « كاراجندا » فى ظرف ٢٤ ساعة فستكون .....  
هل هذا واضح الآن ؟؟

لا زالت هذه الكلمات ترن فى أذنى ! ماذا أفعل الآن ؟ هل أسرع فى الهرب من أمامه ؟ لا فائدة من هذا ! فلا يفيد الهرب من أمام رئيس قسم الشرطة شيئا !

وهكذا ظللت واقفا بكل بساطة ، وأنا أرتعد داخليا من الخوف ، ماذا يحدث الآن ! وفى غضون ذلك كانت العربية قد اقتربت منى جدا ، فأوشكت أعصابى على التحطم من شدة التوتر ، وقفت العربية ، ونزل منها رئيس قسم الشرطة ، واتجه الى مبتسما ، وقال :

— « أيها الرفيق « ليونهارد » هل أعجبك الحياة هنا فى « كاراجندا »؟  
أنا أتمنى من كل قلبى ، أن تشعر بالهدوء والراحة فى « المدينة الجديدة » •  
توقفت الكلمات فى حلقى ! قبل بضعة أيام صاح فى وجهى ، أصدر أمرا بطردى ، واليوم يسألنى عما اذا كنت أشعر بالارتياح هنا !  
— « تعجبنى جدا الحياة هنا فى « كاراجندا » وأشعر بالراحة والطمأنينة » •

— « هذا يسرنى جدا » •

— « لو سمحت ! هل من الممكن أن أحضر الى سيادتكم فى غضون الأيام التالية لانتهاء اجراءات تصريح الإقامة » ؟  
— « لا ! أيها الرفيق « ليونهارد » . اذ ليس من الضرورى أن تتجشم المصاعب للحضور الينا بخصوص هذا الموضوع ، سأرسل لك التصريح الى المعهد غدا مع أحد السعاة » •

وتخطيت أصعب عقبة فى غضون وقت قصير • وجهت الى دعوات للاشتراك فى المناسبات المختلفة ، وقوبلت بالاحترام ، وكان حظى آنذاك نادرا بالنسبة لألمانى ، اذ لم أعامل كـ « أجنبى عدو » • وكانت حالتى فى الحقيقة من الأحوال الشاذة ، فلم يعقد فى المدن والمناطق الأخرى مثل هذا المؤتمر ، وبناء عليه فقد قاسى كثير من الألمانيين اللاجئين سياسيا فى وقت الحرب ، ليس فقط ماديا ، بل نفسيا أيضا ، ولم يستفيدوا شيئا كثيرا ، عندما كانوا يبينون أنهم ألمانىون شيوعيون ،

كافحوا في عهد الجمهورية « الفايرية » ضد النازية ، وخطروا بحياتهم في هذه المقاومة أو فيما بعد في الحرب الأسبانية .  
ورغم هذا فلم يكن من النادر اذلالهم بالسبب لأنهم المانيون ، والسخرية بهم ، والقاء اللوم عليهم فيما يفعله « هتلر » رغم أنهم قاوموا النازية طول حياتهم .

و ذات يوم تلقيت دعوة لسماع محاضرة يوم الأحد في الساعة العاشرة صباحا لمجموعة خاصة في مقر اللجنة المحلية للحزب .  
كان هذا حدثا جديدا بالنسبة لى ، فأحيانا كنت ألاحظ أثناء حديثي مع أعضاء الحزب الروسيين ، أن بعضهم يعلم أشياء أكثر مما نقرأ في الصحف والجرائد السوفييتية ، ولكن لم يكن واضحا لى ، من أين هذه المعلومات !

والآن ! أعتقد أن هذا اللغز قد حل ، فلا بد أن في المدن الأخرى مثل ما في « كاراجندا » . بجانب الاجتماعات الرسمية العادية — في « كاراجندا » كما في كل مكان في الاتحاد السوفييتي — حيث يعاد اللقاء ما تنتشره الصحافة ، تلقى كل يوم أحد محاضرة هامة ، ودسمة في معلوماتها ، في مقر اللجنة المحلية للحزب ، ويدعى لها أفراد ، يختارون اختيارا دقيقا .

يتلقى المدعو خطاب دعوة ، ليبرزه عند الدخول ، فالتفتيش دقيق جدا ، حتى لا يتسرب الى القاعة ، غير المرغوب فيهم .  
كان يحضر هذا الاجتماع بصفة مستمرة ٨٠ من الأعضاء المهمين الذين تتقنوا سياسيا في هذه المدينة . وكان مستوى المحاضرات رفيعا ، فلم يوجد مكان للمحاضرات الهزيلة ، ولم يكن من النادر تناول المشاكل العالمية ، حتى ولو كان مسرح أحداثها بعيدا عن الاتحاد السوفييتي ، كالوضع في أمريكا اللاتينية مثلا .

كنت مسرورا بلذباب الى هناك ، فقد كنت مهتما بالسياسة ، وكان وضعنا ممتازا أن ادعى الى هذا الاجتماع ، وأعلم أشياء محجوبة عن الآخرين .

لم أكن حتى الآن — بصرف النظر عن الدورة الثقافية القصيرة ، التي اشتركت فيها في أوائل عام ١٩٤١ — الافردا عاديا ، يتلقى معلوماته من جريدة « برافدا » فقط .

والآن ! ازدادت المعلومات شيئا طفيفا ، وصار واضحا لى فيما بعد ،

أن هذه هي الدرجة السفلى . يعلوها درجات ، فكلما ارتفعت درجة قل العدد ، وصار مضمون المعلومات أكثر أهمية .

عندما أعود بذاكرتى الى كثير من الأشياء فى الاتحاد السوفييتى ، يبدو لى أن طابع النظام « الستالينى » — بالنسبة لتوصيل المعلومات — تقسيم الناس الى درجات : الدرجة السفلى ، لا يعرف أفرادها شيئاً عما يدور فى وطنه ، ثم تزداد المعرفة مع ارتفاع الدرجة ، حتى تصل الى مجموعة معينة ، تكون ملمة بكل شئ .

نشأ عن طريق تقسيم الناس الى درجات بالنسبة للحصول على معلومات ، نوع من الشعور بضرورة الانتماء الى مجموعات ، لا تتفصل عن مراكز السلطة فى الاتحاد السوفييتى ، ومما لا شك فيه أن الالتفاف حول شخصيات بارزة فى الحزب هام جداً ، وخاصة فى الاتحاد السوفييتى ، حيث توجه جميع وسائل الاعلام من صحافة واذاعة ، وليس لجماهير اشعب أى منافذ للأخبار الا النذر اليسير ، أى لا يذاع الا ما لا يزعج السلطة الحاكمة .

لم أفكر فى مثل هذا آنذاك ، بل أنصت بشغف الى المحاضر ، وأحياناً كنت أقول لنفسى : من أين يعلمون ما يقولونه ، وهو لم ينشر فى الجرائد ولا المجالات ؟ ولكنى لم أعرف جواب هذا السؤال الا بعد سنة .

انطلقت حملة فى « كاراجندا » — كما فى كل مكان فى الاتحاد السوفييتى — للدعوة الى التبرع بملابس وأحذية لجنود الجيش الأحمر الواقفين على خط النار ، استمرت من خريف عام ١٩٤١ الى أوائل عام ١٩٤٢ م . وكانت عملية التبرع ثقيلة على المواطنين ، لأن الشتاء فى « كاراجندا » ، اندفع بشدة ، فقد انخفضت درجة الحرارة فى منتصف ديسمبر الى ٤٠ تحت الصفر ، ثم زادت فى آخر ديسمبر الى ٥٠ تحت الصفر وفى يناير الى ٥٥ ، ووصلت فى بعض الأحيان الى ٥٨ درجة تحت الصفر .

ظلت « كازاخستان » بعيدة عن الحرب ، وكان الجو فيها فى عام ١٩٤٢ م يوحى بأنها تعيش فى حالة سلام ، ولأنها بعيدة عن مسرح المعارك ، فلم تقيد فيها الاضياء مدة الحرب كلها ، فكانت « المدينة الجديدة » تتلألأ بأضوائها ، كما فى السلم ، غير أن الحرب أثرت فى مجالات أخرى ، فقد كان وضع المواد الغذائية أسوأ من الأوضاع فى المجالات الأخرى التى رأيتها .

كان الخبز في ديسمبر عام ١٩٤١ بالبطاقة التي كان فيها صفحات مخصصة للسكر ، والزبد ، واللحم ، ومواد غذائية أخرى ، ولكنها لم .  
تورد .

كنا نحصل نحن الطلبة على ٤٠٠ جرام خبزا يوميا ، ومرتين في اليوم ثورية ، بدون لحم طبعاً ، ومطبوخة بزيت عباد الشمس ذى الطعم الكريه .

لم يشعر أعضاء الحزب ولا كبار موظفي الحكومة ولا العاملين في المؤسسات الاقتصادية بنقص المواد الغذائية في بيوتهم في هذا الوقت العصيب بل كانوا يعيشون كما لو كنا في حالة السلم ، لأنهم كانوا يحصلون على كل شيء من المحلات المتوارية خلف الكواليس .

وبجانب هذه المحلات المقصورة على « الطبقة الممتازة الخاصة » وجد أيضاً أماكن خاصة ، للحصول على الحاجيات المعيشية للمهندسين ، ونساء الضباط و « الطبقة المتوسطة المفضلة » ، الذين لم تفرض عليهم حياة مثل حياة الجماهير ، ولكن وضعهم الطبقي في الحزب ، لم يمكنهم من الوصول الى منابع التي توزع على « الطبقة الممتازة الخاصة » .  
أما بقية الشعب فكان مجبراً أن يعيش على أية كيفية ، بعضهم كان ينجح في الحصول على بعض الأشياء بواسطة معارفه أو أصدقائه المقيمين في القرى حيث لم يزل يوجد بعض المواد الغذائية . كان بعض المهاجرين ، الذين هاجروا مع جميع أفراد أسرهم في وضع يمكنهم من ارسال أحد أعضاء الأسرة ليقضى ساعات للحصول على بعض أنواع الغذاء ، وكان هناك آخرون ، يعيشون وحدهم ، جاءوا الى « كاراجندا » بأموال كثيرة ، ولديهم الامكانية المادية في الحصول على المواد الغذائية من السوق السوداء ، مقابل دفع أثمان باهظة ، حسب ما يطلبه من بيده هذه البضاعة .

لقد كان الوضع بالنسبة لى سيئاً جداً ، لأنى كنت وحيداً لا صلة لى بأحد ، ولهذا اعتمدت كلياً على الكمية المخصصة لى في بطاقة التموين .  
ومن حين لآخر كانت بعض الأسر الصديقة تمنحنى بعض الأشياء ، تلك الأسر الذى مضى على اقامتهم عدة طويلة ، وأقاموا « اتصالات » مع منابع التموين . ولكن لم يغير هذا العطاء حياتى تغييراً جوهرياً . كلما قدمت لى مساعدة وتخيلت شكرى للمساعدين دائماً ، يشدنى تفكيري في معظم الأحوال الى أيام الجوع والبؤس في « كاراجندا » .

## زنجى و « هوبرت » فى بلد العجائب

كنت أسير عبر شوارع « المدينة الجديدة » ، جائعا مكتئبا ، عقب انتهاء المحاضرات مباشرة ، فرأيت زنجيا على بعد •

زنجى ؟ لابد أنه « فايلاندر روت » ، فهو الزنجى الوحيد فى الاتحاد السوفييتى • لقد جاء — حسب علمى — من أمريكا لاجئا سياسيا الى الاتحاد السوفييتى فى الثلاثينات ، وفى رأسه كل تلك الآمال والمثالية ، أنتى كان يتخيلها آنذاك كثير من الناس عن الاتحاد السوفييتى • وهو ممتاز فى الغناء ، ورائع فى الرقص ، واشترك فى تمثيل الفيلم المشهور « السيرك » ، وفى بعض الأفلام الأخرى • وأحيانا كان يكتب بعض المقالات أو يلقي بعض المحاضرات — وبالطبع كتبت له ، ولم يؤلفها من تلقاء نفسه — عن اضطهاد الزوج فى أمريكا وعن الحياة الرغدة فى الاتحاد السوفييتى •

تعرفت عليه فى موسكو • وعندما رآنى قال بطريقته المحبوبة فى نطقه المكسر للغة الروسية :

— « هاللو ! ما هذه المفاجأة السارة ، زنجى وألمانى يلتقيان فى « كاراجندا » ؟

— « ماذا تفعل هنا فى « كاراجندا » ؟

سألته مندهشا ، لأنى لم أكن أستطيع أن أتصور أن الزنجى سيرحل أيضا ترحيلا اجباريا •

— أوه ! أنا هنا فى رحلة مع بعض الفنانين ، وسنعزف « كونشرت » هنا فى « كاراجندا » • سأقدمك لهم حالا ، نحن نسكن جميعا فى الفندق ، وتستطيع أن تتناول معنا طعام الغداء » •

— أتى معك بكل سرور ، ولكنى لا أستطيع أن أكل فى الفندق ، لأنه محرم — منذ أول يناير — على غير النزلاء دخول المطعم • ضحك وقال : « سوف نتغلب على هذا الأمر » •

ورغم الرقابة الشديدة ، وطلب إبراز الأوراق التى تثبت إقامة الداخل الى المطعم فى الفندق ، فقد وقف طابور طويل ، أمام باب المطعم ، لأنه أحيانا — وان كان ذلك نادرا — يسمح لغير النزلاء بالدخول ، بعد توزيع الطعام على نزلاء الفندق • كان الأمل فى الدخول ضعيفا ، ولكن

على الرغم من ذلك ، فقد وقف — دائما — كثير من الناس ، وفي بعض الأحيان ، يمتد انتظارهم الى أربع ساعات •

وعندما وصل الزنجى مع زملائه ، فتح له الباب قبل أن يصل اليه ببضع خطوات ، فاندفع معه بسرعة بعض المنتظرين ، على أمل أن ينزلقوا بجواره ويدخلوا ، ولكن حارس الباب صاح بلهجة حادة :

— « لا يدخل الا من هو مع الزنجى فقط » •

وقفل الباب فى وجهى ، ورأيت صديقى الزنجى من الفتحة الزجاجية يلتفت بعصبية ، وينادى بروسيته المعروفة : « الرفيق الشاب معى » • وهنا تلاشت شدة حارس الباب ، وانكمش ، ثم فتح الباب ، ونادى : « الرجاء من صديق الزنجى ، الدخول الى صالة المطعم » ! فنظر كل الواقفين الى نظرة اكبار واجلال ، ثم قادنى حارس الباب الى صالة المطعم •

تعجبت من نفوذ صديقى قائلاً له :

— أنه لجميل حقا ، أن تكون الزنجى الوحيد ، الذى يجوب الاتحاد السوفييتى !

— نعم ! الناس يقابلوننى بترحاب لا حد له ، غائنا لا أحتاج فى معظم الأحيان الى أن أنتظر دورى فى الصف ، لأنهم يقدموننى على الواقفين فى الصف حين أحضر ، فى أى مكان ، عند الحلاق ، فى محطة السكك الحديدية ، أو فى المحلات •

ثم علمت أن حياته فى ركاب الدولة ، تتأثر باتجاه السياسة الخارجية ، وفى الفترة التى كانت فيها علاقة الاتحاد السوفييتى بأمرىكا متوترة ، لم يستطع أن يرفض الدعوات : كان من اللازم أن يغنى ويرقص هنا وهناك ، يدعى الى الولائم والحفلات كممثل لطائفة لزئوج المضطهدة فى أمريكا • ولكن اذا تحسنت العلاقة مع الولايات المتحدة يظل صديقا ، ولكنه يجب عليه أن يخفى فى عالم النسيان — باضبط مثلنا نحن الألمانيين اللاجئين سياسيا ، وجب علينا الاختفاء بعد توقيع معاهدة عدم الاعتداء مع ألمانيا الهتلرية •

ثم بدأت أوقات مرة فى حياته ، لأنه سوف يسد الستار فى هذه الفترة على اضطهاد الزئوج ويحكم اغلاقه بطريقة فجائية — حتى لا يتسرب الى الحياة العامة — كما حدث يوم أن سلطوا الأضواء عليها فى زمن العداوة • وبالذات فى هذا الوقت ، فقد منحت الولايات المتحدة

الاتحاد السوفييتي قرضا قيمته ١٠ مليار ، وتبدو العلاقة في تحسن مستمر . فالأيام عصيبة أمام صديقي الزنجي . فقد أبلغ بعد القرض مباشرة أنه لا يجوز له أن يغنى أغاني زنجية ، ثم منع من غناء الأغاني الأمريكية ! فهو يغنى الآن أغاني روسية فقط مثل المغنيين الآخرين ، وأصبحت الدعوات الى الحفلات واللقاءات الحارة أثرا بعد عين .

نجحت حفلة « الكونشرت » في « كاراجندا » نجاحا كبيرا ، فقد صفق المشاهدون تصفيقا حارا ، وصاحوا بعبارات الاستحسان ، للزنجي الذي أسكرهم بغنائه ، وبهرهم برقصه . حقيقة كان رائعا ، ويبدو أن المشاهدين لم يدركوا بعد « الخط الجديد » في مسألة الزنجي .

اعتقدت في بادئ الأمر ، أنني أعيش في « كاراجندا » في آخر بقعة مهملة في الكرة الأرضية . ولكنني شعرت بالتدريج أنني أعيش في مدينة عالية . فقد ظهر فيها أولا سكرتير عام الحزب الشيوعي الألماني « فالتر أولبريخت » ، ثم قابلت الزنجي الوحيد الذي يعيش في الاتحاد السوفييتي . وبعد أيام قليلة ، وصل الى « كاراجندا » « أليكسي شتخانوف » المشهور ولكنه لم يعد عامل منجم منذ زمن بعيد ، بل عين مديرا لأحد مناجم الفحم الكبرى في « كاراجندا » وأسند اليه القيام بعمل « تغيير جذري » في مواقد الفحم .

وأخيرا عندما كنت أتسكع في الشوارع في ربيع عام ١٩٤٢ ، رأيت فجأة شخصا يرتدي خرقا قديمة بالية ، يتجه نحوي . لم أصدق عيني هل يمكن أن يحدث هذا ؟ فقد كان « هوبرت » في بلد العجائب .

تبدأ قصة « هوبرت لوستي » في عام ١٩٣٤ م ، ففي ذلك الوقت ، كان غلاما صغيرا ، ابن احدى الأسر التي تعمل في المناجم ، في منطقة « الزار » ، حيث لم يفكر يوما في أحلام اليقظة ، بما ستفعل به الأيام في المستقبل .

وفي يناير ١٩٣٥ م جرى استفتاء شعبي في منطقة « الزار » لمعرفة ما اذا كان شعب هذه المنطقة يريد الانضمام الى ألمانيا الهتلرية ، أو يبقى مستقلا تحت وصاية عصبة الأمم . وفي هذا الوقت أرسلت « برافدا » مراسلها السوفييتي المشهور « ميخائيل كولوسوف » الى هذه المنطقة ، حيث كان يوافيها يوميا بتقرير صحفي عن سير الأحداث هناك . وذات يوم فكر « ميخائيل كولوسوف » في تبني طفل صغير ، ينحدر

من احدى الأسر التي تعمل في المناجم ، في منطقة « الزار » واسم هذا الطفل « هوبرت لوستى » .

سارعت الصحف السوفييتية بإذاعة هذا الخبر ، ونشرت صور الطفل وكتبت كل كبيرة وصغيرة عن حياته .

عاد « ميخائيل » بعد انتهاء عملية الاستفتاء الى الاتحاد السوفييتى ، ومعه ابنه المتبنى « هوبرت » وعند وصول الغلام الى الاتحاد السوفييتى ، قوبل بترحاب حار . ودعى الى احتفالات وموائد ، أُقيمت خصيصا للترحيب به . ونشرت جميع الصحف صورته ، وكتبت المقالات عنه ، وكان اذا ظهر فى أى مكان . يعلن الحاضرون على الملأ ، بأنه موجود بينهم ، وانتقل من احتفال الى آخر ، وكان يتعذر رؤيته أحيانا ، وهو يتصدر مائدة الاحتفال ، من كثرة الزهور التى أهديت له . ولم تكن أحواله فى البيت بأقل مما يحدث له فى المجتمع ، فهو يسكن فى منزل متبنيه « ميخائيل كولوسوف » الذى لم يكن له مركز ولا مكانة فى المجتمع فقط . بل كان يتمتع أيضا بنفوذ كبير ، فهو عضو فى الحزب منذ عام ١٩١٨ م ، وأحد العاملين فى « برافدا » منذ عام ١٩٢٠ م ، وأحد المستشارين فى الوزارة للشئون الخارجية ، وعضو هيئة رئاسة تحرير « برافدا » منذ عام ١٩٣٤ م ، وعلاوة على هذا فهو محرر جريدة « التصاح » الهزلية فى نقتها .

وكان من السهل عليه أن يهينىء للغلام « هوبرت لوستى » الذى انحدر من أسرة ، حرفتھا العمل فى المناجم ، حياة هنيئة . وكان مفهوما أن الغلام الذى كان يبلغ من العمر آنذاك ثلاث عشرة سنة ، كان مرتاحا فى حياته الجديدة .

كانت هذه بداية حياته ، وجمع كل ما حدث له فى الاتحاد السوفييتى بالتفصيل ، وأضيف اليه أيضا محبة ، وثناءه ، وأقواله التى عبر بها عن اعجابه بالاتحاد السوفييتى ، ثم ظهرت فى كتاب بعنوان « هوبرت فى بلد العجائب » .

تسابق الناس على قراءة هذا الكتاب ، فاشتھر « هوبرت » أكثر وأكثر ، دعى الى الكرملين ، واستقبله هناك المارشال « بودجونى » ، والمارشال « توخاتشيفسكى » وأطلق على الغلمان فى المسرحيات والأفلام اسم « هوبرت » ، حتى فى المظاهرات ، ومواكب الاحتفالات ، فقد حملت

صور الغلام الصغير « هوبرت » ذى الشعر الأحمر ، و'الخدود المتوردة  
التي ظهر النمش عليها • وأحبس حقيقة أنه في بلد العجائب •

ولكن سرعان ما انحدرت حياة « هوبرت » السعيدة الى قاع  
سحيق ، قبض على سنده الكبير « ميخائيل كولوسوف » فجأة بتهمة أنه  
« عدو الشعب » ، وبدأت حياة « هوبرت » بعد ذلك تهبط الى الظلام ،  
فاختفت صورته ، وتغيرت أسماء الغلمان في المسرحيات والأفلام وسحب  
كتاب « هوبرت في بلد العجائب » من جميع المكتبات ودور الكتب • ولم  
يعرف الغلام — الذى بلغ في هذه الأثناء أربعة عشر عاما — ماذا يفعل !  
لقد تعود على حياته كبطل شعبى صغير ، ومن الطبيعى أن يكون اجباره  
على التحول الى أن يعيش كغلام عادى ، أمرا بالغ الصعوبة بالنسبة له •

استطاع أن ينتقل الى بيت الأطفال رقم ٦ — الذى كنت أقيم فيه —  
عن طريق وساطة بعض الأصدقاء ، الذين لم يكن قد قبض عليهم بعد •  
فأصبح أحد نزلاء دارنا التى نقيم فيها • ثم تعود بالتدريج على  
حياته الجديدة وأنشأ صداقات مع بعض القاطنين فى البيت ، وكنت ضمن  
أصدقائه • وبعد سنة أو سنتين رضى بالخروج من وضعه كـ « هوبرت  
فى بلد العجائب » • والاندماج فى حياة عادية كـ « هوبرت لوستى » •  
ولم يمض على تعوده على الحياة الجديدة فى بيت الأطفال سوى  
وقت قصير ، الا وأصيب بضربة جديدة فى أغسطس عام ١٩٣٩ م ،  
فقد صفى بيت الأطفال عقب عقد معاهدة عدم الاعتداء مع ألمانيا  
الهتلرية ؛ وكان هذا ضربة مؤلمة لنا جميعا ، ولكنها كانت أكثر ايلاما  
لـ « هوبرت » الذى لم يكده يتعود على الظروف الجديدة ، الا وقد أزيح  
خطوة أخرى الى الوراء •

حدث هذا فى أغسطس سنة ١٩٣٩ م ، ونحن الآن فى ربيع عام  
١٩٤٢ م ، أى لم أره منذ عامين ونصف ، ولم أعلم أيضا ماذا حدث له ؟  
ويقف أمامى الآن ، فى ملابس ممزقة ، مهلهلة ، وعلى وجهه مظاهر الجوع  
والحرمان ، وبدأ وكأنه متشرد •

ومن المحتمل أنى لم أبدو آنذاك فى وضع أحسن من حالة « هوبرت »  
اننى أزعجتى رؤيتها عندما يدت أمامى • تحدث معى — دون قصد —  
باللغة الروسية ، فقلت له :

« أنت لا تحتاج الى أن تتحدث معى باللغة الروسية ، تستطيع أن تتحدث باللغة الألمانية » .

فضحك ، ولكنها كانت ضحكة حزينة ، ثم قال :

« لم يعد من عادتى التحدث بالألمانية ، فقد مضى وقت طويل . لم أتحدث فيه مع أحد بالألمانية » .

وعقب هذا مباشرة ، انقلب حديثه باللغة الروسية مرة ثانية ، وبدأ يحكى قصته .

لقد جىء به — مثل كل الألمانين — الى قسم الشرطة فى خريف عام ١٩٤١ م ورحل ضمن أول مجموعة ترحل الى منطقة « كاراجندا » ولم تكن حالته مثل الألمانين الذين رحلوا فى مجموعتنا ، فبينما استقروا فى مجموعات ، أرسل هو وحده الى قرية نائية فى منطقة « كاراجندا » ، وبدأ العمل فى اليوم التالى لوصوله مباشرة فى احدى المستعمرات : — وماذا تعمل فى المستعمرة ؟

— أرعى المواشى .

نظرت اليه ، وقف أمامى قفرا ، مهلهل الثياب ، لعته روسية ، ولم يذكرنى بـ « هوبرت فى بلد العجائب » السابق ، سوى عينيه البراققتين ، والنمش الذى على وجهه .

ولكنه لم يثك لأحد من قسوة ظروفه ، بالضبط كما فعلت أنا ، فقد كان من الأمور المسلمة عندنا ، أن من الممكن فى الاتحاد السوفييتى ، انحدار المرء من أعلى القمم الى أسفل السافلين ، وبالعكس أيضا . أردت أن أتحدث معه ، لأنى أحببت استطلاع ما عنده ، وللأسف لم تمكنى الظروف من ذلك ، فقد هز رأسه فجأة ، وقال :

« يا لطيف ! لا يجوز لى اطلاقا أن أتسامر وقتا طويلا ، فلقد أرسلت الى هنا لشراء بعض احاجيات ، ولا يجوز لى التغيب عن المستعمرة الا بضع ساعات فقط ، فلو لم أعد فى الوقت المحدد ، لحدث ما لا يحمد عقباه » .

فهمت وضعه ، ثم ودعته .

ثبيعت بنظرات الحبرة صديقى من بيت الأطفال رقم ٦ ، البطل السوفييتى السابق ، وراعى المواشى بثيابه المهلهلة حالي . زائر الكرملين فيما مضى من الزمن ، والخائف الآن من قومندان احدى المستعمرات الصغيرة .

حاولت مرارا الاتصال به فيما بعد ، ولكن دون جدوى ، فقد  
اختفى « هوبرت في بلد العجائب » ولم يظهر حتى الآن .



### التلغراف الغامض

مكثت في معهد « كاراجندا » للمعلمين نصف عام ، ثم بدأت في  
مواصلة رحلتي المقررة في آخر مايو سنة ١٩٤٢ ، الى « ألما — أتا »  
لألتحق بالمعهد الذي هجر الى هناك .  
لو كنت أعلم ما ساعانيه ، ما أقدمت على السفر : ٥٠٠ كيلو متر سفر  
بالقطار عبر المنطقة الجرداء « جولودنايا ستيب » الى « بالخاش » ،  
تلك المدينة الجديدة التي توجد بالقرب من مناجم النحاس السوفييتية ،  
وسفر بالركب في بحيرة « بالخاش » حيث شطحت المركب في صخور  
رملية ، ونفذ ما معنا من طعام ، فأشرفت على الهلاك من شدة الجوع ،  
الى أن استطعنا الوصول أخيرا الى « كاراشاجان » وهي منطقة صغيرة  
على الشاطئ الشرقي لبحيرة « بالخاش » ، ثم رحلة في جو شديد  
الحرارة في سيارة نقل مكتظة بالراكبين عبر صحارى « زارى اشيك  
أوتراوى » الى « لبيسى » وهي محطة عند « توركزيب » ، وهي تبعد  
عن الحدود الصينية بمائة كيلومتر ، حتى وصلت الى « ألما — أتا »  
بعد سفر عشرة أيام ، حيث علمت أن المعهد امتلأ بالطلاب ، وليس فيه  
مكان لدارس جديد ، وقد قفل باب تقديم الطلبات .

وبدأت سفرا آخر من « ألما — أتا » متجها هذه المرة شمالا الى  
« نوفوزبيرسك » حيث اضطرت مع آلاف من المسافرين أن نقيم أياما  
على رصيف المحطة كالبهائم في الحظائر . ولم أكن أتناول سوى ٣٠٠ جرام  
من الخبز المبلول يوميا ، حتى استطعت مواصلة السفر الى « بيتروباقلو »  
ومن هناك واصلت السفر لمدة ٣٣ يوما حتى وصلت مرة أخرى الى  
« كاراجندا » .

لم أصل الى هدفي ، ومع ذلك لم أندم على السفر عبر « كازاخستان »  
و « سيبيريا » في وقت الحرب ، فقد رأيت في هذه الشهور أشياء  
كثيرة في الاتحاد السوفييتي ، وتعلمت أكثر مما تعلمته في سنوات عديدة  
في موسكو .

فقد حولت هذه الرحلة كثيرا مما كنت أظنه الى حقيقة ، وأكدت  
بعض المعلومات عندي . رأيت المصانع الكبيرة الضخمة ، التي تحولت

بواسطتها من بلد زراعى متخلف الى بلد صناعى ، ولكنى رأيت فى نفس الوقت أنه لم يعمل شئ لهؤلاء الذين يعملون فى هذه المصانع وما قدم لهم من خدمات ، فهو ضئيل جدا •

ورأيت مرة أخرى الفرق الشاسع بين الطبقة الممتازة من مديريـن واداريين ومهندسين وبين العمال العاديين •

لقد أعجبت بالخط الحديدى الضخم من « تركستان » الى « سيبيريا » ، وفى الوقت نفسه شاهدت أثناء الحرب بؤس الشعب الذى يعجز القلم عن وصفه •

حاولت الدعاية السوفييتية — ولا زالت — اقناع الشعب بأن فقره وجوعه — أثناء الحرب — نتيجة للنظام النازى ، الذى شن حربا على الاتحاد السوفييتى ، فبدد جهوده للقضاء على حرمان الشعب السوفييتى ، بينما الوضع بالعكس فيما جاء فى بعض تحليلات الأسرى الألمانين ، فقد نسبوا فقر هذا الشعب الى طبيعة النظام السوفييتى ، وهو موجود وسيظل ولو لم تشن حرب على هذه الدولة •

ظهر لى أن غالبية السكان من الطبقة المتوسطة ، غير أنه مما لا شك فيه أن حالة الحرب رفعت نسبة البؤس بين طبقات الشعب ، ولكن كانت حياة الناس من قبل الحرب سيئة أيضا ، لأن جزءا قليلا من جهود الدولة كان لتقديم الخدمات الى الطبقة العاملة ، واطركز كلـه كان موجها الى بناء الصناعات الثقيلة ، والى تسهيل العيش اللين الرغد ، للزعماء ، وكبار الدولة ، وهى طبقة صغيرة فى عددها بالنسبة الى تعداد السكان •

ومما لا شك فيه ، أنه يوجد أيضا — كما فى كل بلد — أناس أنانيون ، وحشيون ، ولكن تحملت الغالبية قدرها بشجاعة ، وساعدت البؤساء • تعرفت أثناء هذه الرحلة على سكان الاتحاد السوفييتى أكثر من ذى قبل ، وقدرتهم ، واحترمتهم ، ومن الضرورى أن أوكد هذا الآن ، لأن كثيرا من الغربيين ، الذين يعارضون النظام الحاكم فى الاتحاد السوفييتى • يحملون الشعب السوفييتى تبعه قيامه • وأهز رأسى دائما مستكرا ، اذا قابلت شخصا ، ينظر الى « الروسين » نظرة احتقار ، لأن بعضهم وقف عاجزا أمام منجزات الحضارة الغربية •

وواضح أنهم ينسون أن هؤلاء الناس ليسوا أقل قيمة من الناس فى الغرب •

عدت الى « كاراجندا » في نهاية يونيو سنة ١٩٤٣ • الى أين ينبغي أن أذهب الآن ؟ الى معهد المعلمين ؟ لقد سحبت أوراقى منه • وهكذا قررت أن أذهب أولا الى أصدقائى فى اللجنة المحلية لـ « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » • اندهشت سكرتيرة الرابطة لرؤيتى مرة أخرى ، ثم قالت :

— « الآن ! لم تتجح فى « ألما — أتا » أيها الرفيق « ليونهارد » ؟ فأومأت برأسى

— « هل تريد البقاء فى « كاراجندا » ؟

— « نعم ! فأنا أعتقد أن البقاء هنا أحسن » •

— « جئت فى الوقت المناسب ! لقد ووفق لنا على انشاء وظيفة جديدة ألا وهى مشرف للرابطة فى « كاراجندا » ، وسيكون مجال عمل من يعين فيها : اللاجئيين السياسيين • واقترحت تعيينك فيها ، وللأسف كنت قد سافرت • ولهذا سأرفع الاقتراح بتعيينك حالا الى اللجنة المحلية للحزب » •

كنت قد سرحت فى رحلتى التى قمت بها ، فكنت أرى أمامى « بالخاش » ومناظر الجوع على المركب ، والمرور بعد ذلك عبر صحارى « كاراشاجان » ، والسفر الى « ليبسى » ، ومشاهد اليأس والقنوط فى مكاتب المدينة الجميلة « ألما — أتا » و « توركزيب » والأيام على محطة « نوفوزبيرسك » فلم أعط جوابا لسكرتيرة الرابطة ، ولكنها فسرت صمتى تفسيراً سيئاً ، فقد اعتقدت أنى متردد ، فأردفت تقول :

« سوف تناقش معى — بصفتك مشرفاً — كل شئ هنا ، وتنبؤ عنى هنا فى حالة قيامى بمهمات خارجية ، والمرتب « ٥٠٠ روبل » شهريا وسنبحث لك عن مسكن مناسب » •

وأدركت الآن فقط ما يعرض على ، فوافقت • وتلقيت الجواب فى اليوم التالى :

« وافقت اللجنة المحلية للحزب على تعيينك ، والسكن جاهز لك » • وسرت مع من يصحبنى الى السكن فى شارع « اعلان لينين » حتى وقفنا أمام منزل جديد وجميل من أربعة طوابق •

— « هنا مسكنك » •

دلقت الى مطبخ كبير ، يبدو أنه أعد ليستعمله المؤجر حجرة من

الباطن ، ويجانب المطبخ الخاص حجرة متوسطة ، تسع سريرا وكرسيا ،  
ودولابا صغيرا • ثم قيل لى : « ان هذه الحجرة سوف تؤسس اليوم »  
فكدت أن أطير من الفرح •

لم أسكن فى حجرة منفردا ، منذ أن جئت الى الاتحاد السوفييتى  
حتى الآن ، فقد كنا فى مساكن الطلبة فى موسكو ، اثنين أو ثلاثة فى  
الحجرة وفى معهد المعلمين فى « كاراجندا » كنا عشرين فى حجرة واحدة ،  
وفى رحلتى كنت أفرح ، لو وجدت مكانا صغيرا بين الجموع المحتشدة فى  
أمكنة الايواء ، والآن أصبحت لى وحدى حجرة بمطبخها •

بدأت عملى بعد يومين كمشرف فى « رابطة التنظيم العالمى لحماية  
المناضلين من أجل الثورة » فى اللجنة المحلية للحزب فى « كاراجندا » •  
— « والآن أيها الرفيق « ليونهارد » ! هاهو ذا مكتبك ، هو صغير ،  
ولكنه يكفى • لقد وضعت لك عليه كل الأشياء التى يمكن أن تتصفحها » •  
— « لم أعلم بالضبط ، ما هو نوع العمل الذى سأقوم به على وجه  
التحديد » ؟

— « مطلوب منك الاهتمام بالألمانيين اللاجئيين سياسيا ، الذين  
يقيمون فى منطقة « كاراجندا » •

ثم أعطتنى قائمة بأسماء ٥٨ لاجئا ألمانيا ، وكتبت أمام كل اسم :  
اسن ، ومكان الميلاد ، وعنوان العمل السابق • وأخذت بالاضافة الى  
ذلك محفظة للأوراق مثبت فيها صور مكاتبات ومستندات •

— « سيكون من واجباتك تلقى مكاتبات اللاجئيين الألمانيين  
والرد عليها ، ويجب عليك أن تقدم اقتراحات لسد الحاجات التى تنقصهم  
فى حدود الامكانيات المتاحة لنا ، فاذا احتجت الى مراسلة جهات رسمية  
فاكتب الخطاب ثم قدمه الى لأوقعه ، وبجانب ردك على المكاتبات ، فأقترح  
أن تقوم برحلات فى منطقة « كاراجندا » لترور الرفقاء فى أماكن اقامتهم •  
وفى هذه الحالة يجب عليك فى نفس الوقت زيارة منظمة الرابطة فى المنطقة  
التي تزورها ، واذا حصلنا على مواد غذائية ، وصابون ، وأقمشة  
فسوف تتولى توزيعها على الألمانيين اللاجئيين ، المكلف برعايتهم ، لأن  
مطالبهم الضرورية ، لها الاعتبار الأول عندنا » •

انطلقت الى عملى الجديد بحماس ، تصفحت الأورق ، ثم وضعت

خطة لزيارة الرفقاء ، منطقة بعد أخرى ، ولكن للأسف لم يكن هناك في هذا الوقت شيء لتوزيعه عليهم ، ولكنى أردت بعد القيام بزياراتي وضع قائمة بالأشياء الضرورية للاجئين كي أساعدهم في الحصول على ما هو ضروري جدا .

مرت الأيام بسرعة ، كنت أفكر دائما في مؤتمر اللاجئين الذي عقد في ديسمبر سنة ١٩٤١ ، فسعيت جاهدا لعمل كل ما يمكن لمساعدة الرفقاء . وكنت مرتاحا جدا ، لا لأنى أقوم بعمل ما ، ولكن لأنى أقوم بعمل ، يبدو لى أنه ضرورى جدا . فلو كنت أنظر الى « كاراجندا » ، حتى الآن ، على أنها محل إقامة مؤقتة لى ، فانى أتمنى في هذه اللحظة أن تطول هذه الإقامة .

ولكن طرأت حوادث بعد ذلك بوقت قصير ، قلبت مشاريعي رأسا على عقب : فبعد ثلاثة أسابيع من تعيينى مشرفا في « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » توجهت الى مقر العمل ذات يوم صيفى مشمس وأنا خالى الذهن تماما . ولم أكد أدخل حتى ناولتني سكرتيرة الرابطة تلغرافا قائلة :

« هذا لك » .

قرأت : « ينبغى على الرفيق « ليونهارد » الحضور الى « أوبا » فوراً . . . » « فيلكوف »

« أوبا » ؟ . . . أنا أعلم أن « أوبا » عاصمة جمهورية « بشكير » السوفييتية المتمتعة بالحكم الذاتى ، وتقع على بعد ٣٠٠٠ كيلو متر غربى « كاراجندا » .

أذن . . . يجب على مرة ثانية القيام برحلة طويلة .

« أوبا » ؟ فهذه هي المدينة التى يوجد فيها قيادة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، ورئاسة اللاجئين من أعضاء الخبز الشيوعى الألمانى . وبعد دقائق طلب التليفون سكرتيرة الرابطة ، ولكن الحديث كان قصيرا .

« ينبغى عليك الذهاب فوراً الى قسم التدريب العسكرى فى اللجنة المحلية للحزب » .

ومرة أخرى — كما فى نوفمبر سنة ١٩٤١ — ذرعت مقر اللجنة المحلية باحثا عن طلبنى ثم حط بى الرحال عند سكرتيرة الحزب لشئون التدريب .

— « اسمى « فولفجانج ليونهارد » استدعيت للحضور الى هنا قبل دقائق » •

نظرت الى نظرة قصيرة متفحصة ، ثم قالت بلهجة حادة :

« جاءنا تلغراف من « أوبا » بطلب سفرك الى هناك فورا فاذا وصلت فتوجه الى اللجنة المحلية لـ «رابطة التنظيم العالمى لحمية المناضلين من أجل الثورة » ومن هناك ستوجه الى الجهة التى طلبتك • ومن الأفضل الاسراع بالسفر ما أمكن ، وسوف تحصل غدا على التذكرة ومصاريف السفر من هنا » •

كان هذا كل ما فى الموضوع •

لم تذكر هى الأخرى كلمة واحدة عن سبب السفر المفاجئ الى « أوبا » ، ولا عرفتتى من هو « فيلكوف » ومن الطبيعى أنى أعلم ، أنه لا يجوز السؤال عن مثل هذه الأثياء •

كان من الممكن أن أفرح كثيرا ، لو استدعيت الى « أوبا » قبل أربعة أسابيع • وأنا مسرور أيضا بهذا الاستدعاء ، ولكن السرور تبخر ، فقد حصلت على عمل ، ومسكن ، وحصار لى أصدقاء • ويجب الآن ترك كل هذا — وبالذات الآن ، حيث اندمجت فى الحياة هنا اندماجا كليا • ولكن لا ينفج شئ الآن ، فقد تربيت على المحافظة على النظام ، وتنفيذ الأوامر بدقة ، وأنا مكلف الآن بالسفر الى « أوبا » بأسرع ما يمكن • واليوم أعلم ، أنه تم تنفيذ تغيير حياتى فى تلك الأيام تغييرا جذريا ، فقد أتيج لى التعرف على الاتحاد السوفييتى من زاوية جديدة ، مختلفة تمام الاختلاف عن موقفى السابق ، بالنسبة للتعرف على مجرى الأمور فى هذا البلد ، اذ دخلت آنذاك فى طبقة الأعضاء القياديين فى الحزب •

لم يكن واضحا لى آنذاك عاذا يعنى هذا التغيير ، ثم بدأت أشعر فيما بعد أننى تخلصت من كل المتاعب السابقة ، وتذلل أعامى كل عقبة نعترض سبيلى ، فلا نوم على رصيف محطات السكك الحديدية ، ولا صراع للحصول على تصريح اقامة ، ولا جرى بين المكاتب ، ولا جوع • ولكن ينبغى أن أدرك فى الوقت نفسه ، أن جو هذه الطبقة له ظلال أيضا ، أعنى الرقابة المستمرة ، والرقابة لذاتية ، وهذا لم يكن موجودا فى

حياتي السابقة التي عشتها كانسان عادى فى الاتحاد السوفييتى ،  
كنت فيها حرا تقريبا .

تحرك القطار من « كاراجندا » فى وقت متأخر من بعد الظهر ،  
وسافرت مرة أخرى عبر الصحارى الى « كازاخستانية » التى أراها لآخر  
مرة . اتجهنا الى الشمال حتى « بيتربافلوفسك » ، ومن هناك نحو  
الغرب الى « أوغا » .

كانت نفس الطريق ، التى قطعناها فى نوفمبر سنة ١٩٤١ تحت  
الحراسة كمرحل ترحيلا اجباريا ، الا أن القطار يسير الآن فى الاتجاه  
المعاكس . وكان بالنسبة لى أكثر من تغيير جغرافى لاتجاه معاكس ،  
وصلت الى « أوبا » حيث توجد جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية .

